الفصل الأول

الشعر والتاريخ

دراسة تمهيدية

توطئة

لم تكن علاقة العرب بالشعر وليدة ظرفها الآني؛ وإنما كانت علاقة كانت علاقة عميقة الصلات موغلة الجذور، فهو مادة معرفتهم وموطن علمهم، وتراث آبائهم وموئل سحرهم، وموضع حديثهم، به يتفاخرون، ومن خلاله يتحاورون ويتميزون ويتصدرون، فكان للشاعر عندهم منزلة رفيعة يسمو بها على غيره، لأن الشعر دليل التعبير عن الحسن الدافق والنبوغ المعرفى، فهو يؤنس الوحشة ويهذب الذوق ويثرى اللغة، ويعمق المدارك.

أما تعريفه، فهو: "كلام منظوم، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية"[1]. وقيل هو: "كلام موزون مقفى دال على معنى ويكون أكثر من بيت"[2]. والدلالة على معنى عنى التعبير عن فهم جلى للحياة وتهذيب لجانب من جوانبها، فقد جاء فى الحديث: إن من الشعر لحكمة، وقيل حكمًا"[3]. أي: "قولاً صادقًا مطابقًا للحق.. فالمعنى أن من الشعر كلامًا نافعًا يمنع السّفه"[4]. فكان موعظة وعبرة تؤثران فى

---

(١) ابن منظور، محمد بن محرم (ت، ٧١١هـ/ ١٣١١م): لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف خياط، الجزء الثاني (دار لسان العرب، بيروت، ١٩٧٠م)، ٢٣٢ (شعر).

(٢) ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس (ت، ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م): الصاحبي في فقه اللغة وسنن في كلامها، حققه وقدم له: مصطفى الشويمي. (مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م)، ٢٧٣.

(٣) البخاري، محمد بن إسماعيل (ت، ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م): صحيح البخاري، الجزء الثامن (عالم الكتب، بيروت، د.ـ)، ٦٣؛ ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني (ت، ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م): سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، الجزء الثاني (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دون تأريخ)، ١٢٣٦.

(٤) ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت، ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): فتح الباري بشرح البخاري، الجزء ١٣ (مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة ١٩٥٩م)، ١٥٦.

الحياة الاجتماعية ومادة ثقافية تنير الأحداث وتكشف عن خفايا الأشياء، فتشكل موقفًا تقترن به الفصاحة بالقوة[1]. فقد كان "الشعر ديوان العرب"[2]. لأن "به حفظت الأنساب وعرفت المآثر، ومنه تُعلمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله -جل شأنه- وغريب حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وحديث صحابته والتابعين"[3]. فقد كانت العرب لا تعرف "أنسابها وتواريخها وأيامها ووقائعها، إلا من جملة أشعارها"[4] التى توثق بها أخبارها، لأن الشعر لدى العرب كان "ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون"[5]. وكان ابن عباس رضى الله عنه (ت، ٦٨هـ/ ٦٨٧م) يقول: "إذ قرأتم شيئًا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب؛ فإن الشعر ديوان العرب"[6]. والديوان فى اللغة: مجتمع الصحف، وهو الدفتر الذى يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء[7]. فالشعر بالتالى تاريخ وصحيفة توثق الأيام والأنساب واللغة والأحداث، لذا كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر هنأتها القبائل لأن الشاعر يحمى

---

(١) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت، نحو ٤٩٥هـ/ ١٠٠٤م): كتاب الصناعتين (طبعة مصر، القاهرة، ١٣٢٠هـ)، ١٠٤.

(٢) الجرهمي، عبيد بن شرية (ت، ٦٧هـ/ ٦٨٦م): أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها، ملحق بكتاب التيجان (مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الطبعة الأولى، ١٣٤٧هـ)، ٣٦٦؛ الدنيوري، أحمد بن داود (ت، ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥م): الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م)، ٣٣٠.

(٣) ابن فارس: الصاحبي، ٢٧٥؛ السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر (ت، ٩١١هـ/ ١٥٠٥م): المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم، على محمد البجاوي، الجزء الثاني (دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م)، ٤٧٠.

(٤) ابن رشيق، الحسن بن رشيق القيرواني (ت، ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، الجزء الأول (دار الجيل، القاهرة، الطبعة لرابعة، ١٩٧٢ م)، ٢٧.

(٥) ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي (ت، ٢٣١هـ/ ٨٤٥م): طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شارك، السفر الأول (مطبعة المدني، القاهرة، دون تأريخ)، ٢٤.

(٦) ابن رشيق: العمدة ١/ ٣.

(٧) ابن منظور: لسان العرب، ١/ ١٠٣٩ (دون).

أعراضهم، ويذنب عن أحسابهم، ويخلد مآثرهم، ويشيد بذكرهم[1]. هذا فضلاً عن كون الشعر يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم، ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم[2]. فكان الشعر يخلد أبطالهم وأخبارهم، ومدار حديث نواديهم وشاهد صوابهم وخطئهم والأصل الذى يرجعون إليه فى الكثير من علومهم وحكمهم وأفكارهم[3].

ومما يروى عن حكيم بن معية، أنه أقبل مع بنى سليط ودون الموقف، أى وثقه شعرًا فقال:

لا يَتَّقـــى حُـــولا ولا حَـــوامِلا يَـتركُ أَصـفَانَ الخِـصَىَ جلاجِـلا[4]

لقد صار الشعر أساسًا فى توثيق الأحداث التاريخية وحفظها وعدم نسيانها لأنه يثير فى السامع أو القارئ لذة المتابعة والمعايشة لتلك الأحداث، وبذلك برز الاعتماد على الشعر عند المدونين الأوائل فى تاريخ العرب والمسلمين الذين بدأوا بتدوين مختلف العلوم التى شعروا بضرورة تدوينها كالتفسير والحديث النبوى والمغازى والسير والأخبار، لأنـه مـورد مـن المـوارد التى تساعد المؤرخ فى الوقوف على تاريخ العرب والاطلاع على أحوالها[5]. فهو العلم الذى "اختلت به عن سائر

---

(١) ابن رشيق: العمدة، ١/ ٦٥.

(٢) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت، ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م*): البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الجزء الأول (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م)، ٢٤١.

(٣) القرشي، أبو زيد محمد بن الخطاب (ت، القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر الميلادي): جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق: علي محمد البجاوي، القسم الأول (دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة مطبعة لجنة البيان العبي، الطبعة الأولى، القاهرة، دون تأريخ)، ٢٩؛ ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد (ت، ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م): المقدمة (دار القلم، بيروت، دون تأريخ)، ٤٧٣.

(٤) أحمد بني المجر من بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة: ينظر الترجمة والخبر: أبو عبيدة، معمر بن مثنى التيمي (ت، ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م): نقائض جرير والفرزدق، تحقيق د. أ شلي بيفان، الجزء الأول (مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٥م)، ٦، ٩.

(٥) علي، جواد: المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول (دار لعلم للملايين، مكتبة النهضة|، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م)، ٦٧.

الأمم"[1]، فجعلوه مصدرًا من مصادرهم وإلى ذلك يشير التنوخى فيقول: "واعتقدت إثبات كل ما أسمعه من هذا الجنس وتلميعه بما يحث على قراءته من شعر المتأخرين من المحدثين، أو مُجيد من الكتاب والمتأدبين"[2]. فأدى إلى حفظ الكثير من الأخبار والأحداث لأن تداوله وحفظه يعنى حفظ وتداول الأخبار المتعلقة بذلك الحدث وهو ما كون مادةً أساسية لدى الإخباريين أسهمت فى تدوين الأحداث وتبويبها، فاندفع المؤرخون نحو الإكثار من الاستشهاد بالشعر والاعتماد عليه بوصفه جزءًا مهمًا فى منهج كتابة التاريخ، وإن دراسته أفادت فى كشف الأبعاد الحقيقية للكثير من المواقف والأسرار المتصلة بحياة الناس.

وعندما وفد عبيد بن شرية الجرهمي[3] على معاوية بن أبى سفيان ت، ٦٠هـ/ ٦٩٧م) وهو خليفة فى دمشق "فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس فى البلاد وكان استحضره من صنعاء اليمن فأجابه بما أمر به معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد بن شرية"[4] فكانت الأيام وأخبارها مادة من مواد المؤرخ العربى فى حفظ الأحداث التاريخية المتعلقة بها حتى جرى تدوين التاريخ وحساب السنين، فكان التاريخ السجل الحافل بما هو خاص وعام، وكان المؤرخ يبحث باستمرار عما يديم الصلة الحية بالوقائع عبر الصورة النقية، والكلمة العَذبة، والفِكرة الصادقة لغرض استنباط الحقيقة والوقوف على

---

(١) الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري (ت، ٤٢٩ه/ ١٠٣٧م): يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الجزء الأول (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الألوى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ٣٠.

(٢) التنوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت، ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م): نشوار المحاشرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، الجزء الأول (بيروت، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ١٠.

(٣) عبيد بن شرية الجرهمي، إخباري (ت، ٦٧هـ/ ٦٨٦م) له كتاب (الأمثال)، وكتاب (الملوك، وأخبار الماضين). ينظر ترجمته: ابن النديم، محمد بن إسحق (ت، نحو ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م): الفهرست (المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة الاستقامة، القاهرة، دون تأريخ)، ١٣٨؛ ياقوت، شهاب الدين بن عبدالله الحموي الرومي (ت، ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): معجم الأدباء، نشر مير جليوث، الجزء ١٢ (دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تأريخ)، ٧٢-٧٨.

(٤) ابن النديم: الفهرست، ١٣٨؛ ياقوت: معجم الأدباء ١٢/ ٧٨.

صحة الواقعة ومجرى الأحداث المهمة مع البحث عن الجوانب الثانوية التى تعوّض الباحث عن الوثيقة، فقد كان عبيد بن شرية الجرهمى يقول: "إن الشعر ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها والحاكم بينهم"[1] فى عصر ما قبل الإسلام، فأشار إلى الإسلام، وأشار إلى تاريخ عاد مستعينًا بالشعر فى قول الشاعر:

عَجِبتُ لعادٍ وأمثالِها تُحاوِلُ العِزَّ والمُكرَماتِ[2]

كما غدت كتابات وهب بن منبه[3] (ت، نحو ١١٦هـ/ ٧٣٤م) أكثر ميلاً للاتجاه الإخبارى فى التدوين التاريخي[4]، الذى يدعم المورد الشعرى بوصفه شاهدًا يؤكد حقيقة الخبر ويوثق الأحداث التاريخية، ويحقق صحة الوقائع والأيام[5]، فقد سأل الحجاج بن يوسف الثقفي[6] (ت، ٩٥هـ/ ٧١٣م) أعرابيًا "فقال: فهل تروى الشعر؟ قال إنى لأروى المثل والشواهد، قال: المثل قد عرفناه فما الشاهد؟ قال: اليوم يكون للعرب من أيامها عليه شاهد من الشعر، فإنى أروى ذلك الشاهد"[7].

---

(١) الجرهمي: أخبار اليمن، ٣٦٦.

(٢) نفسه.

(٣) أبو عبدالله وهب بن منبه اليماني، صاحب الأخبار والقصص (ت، نحو ١١٦هـ/ ٧٣٤م)، ترجمته: ياقوت: معجم الأدباء، ١٩/ ١٢٨٢م): ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت، ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس الجزء السادس (دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ٣٥-٣٦.

(٤) حمادي، عبدالخضر جاسم: الحركة الفكرية في القرن الأول الهجري،| دراسة في بدء التدوين، رسالة ماجستير مقدمة إلى معهد الدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية (بغداد، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ١١١.

(٥) ينظر: الطبري، محمد بن جرير (ت، ٣١٠هـ/ ١٩٢٣م): تأريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الأول (دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٨)، ٣٧٨-٣٧٩. في استشهاده بشعر جرير في انتقال الملك عند الفرس من (أفريدون) إلى (منوشهر) وأن الفرس تنكر هذا النسب، ولا تعرف لها ملكا إلا في أولاد (أفريدون) ولا تقر بالملك لغيرهم.

(٦) أبو محمد، الحجاج بن يوسف الثقفي (ت، ٩٥هـ/ ٧١٣م). ترجمته: الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨÷هـ/ ١٣٤٧م): ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، الجزء الأول (دار الفكر، بيروت، دون تأريخ)، ٤٦٦؛ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت، ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨ م): تهذيب التهذيب، الجزء الثاني (دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ٢١٠.

(٧) المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت، ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): مروج المذهب ومعادن الجوهر، ضبطه يوسف أسعد داغر، الجزء الثالث (دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥م)، ١٣٦.

لذا وجد المؤرخون فى الشعر أهمية خاصة فى تدوين الأحداث ومادة فى الاستشهاد وركيزة من ركائز الاعتماد فى توثيق الأخبار[١]، كما رووا شعرًا يصف البلدان بلدًا بلدًا ووادياً وادياً وجبلاً جبلاً، فأحسنوا إحصاءها وجودوا وصفها فى الشعر[٢].

من هنا يمكن ملاحظة الصلة العميقة بين الشعر والتاريخ التى منحت التاريخ إمكانيات عديدة فى الاستفادة من خصائص الشعر، ومنها:

الاتصال الروحى بين الشعر والتاريخ، لأنهما ينطلقان من بؤرة معرفية واحدة، حتى أن أحد الباحثين الغربيين وصف الشعر بأنه "تاريخ مخلق"[٣] بينما رأى باحث غربى آخر استمرار وجود هذه الصلة بقوله: "لا يزال التاريخ بالنسبة لى شعرًا على حدٍّ كبير"[٤]، فقد استعان المؤرخ بالشعر فى فهم الأحداث التاريخية، فكان الشعر وثيقة يعود إليها فى توكيد الخبر ووقع الحدث[٥].

يسد الشعر ثغرات كبيرة فى دراسة التاريخ، لأنه دليل من أدلة تقوية الأخبار وتعميق المضامين بما يسهم فى كشف الجوانب الخفية من الأحداث وما واكبها من أخبار، لأن الشاعر بطبيعته ينظر إلى الحدث نظرةً فاحصةً بما ييسر للباحث فى أن يجعل الشعر وثيقة تاريخية، ومصدرًا من مصادر دراسة التاريخ[٦]. فقد عمل الشعر

---

(١) القيسي، نوري حمودي: الشعر والتاريخ (دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م)، ٣.

(٢) الهمداني، لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت، ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م): صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع (مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٣٣٣-٣٣٧.

(٣) روزنثال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صالح أحمد العي، مراجعة د. محمد توفيق حسين (مكتبة المثنى ومؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بغداد – نيويورك، ١٩٦٣م)، ٢٤٥.

(٤) نف، إيمري: المؤرخون وروح الشعر، ترجمة توفيق اسكندر، مراجعة محمد شفيق غربال (مكتبة الأنجلو المصرية مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك، ١٩٦١م)، ٢١٨.

(٥) القيسي: الشعر والتاريخ، ٤٠.

(٦) الطرفي، محمد حسين جاسب: دور الشعر في تدوين الأحداث التاريخية خلال القرن الثاني الهجري، رسالة ماجستير مقدمة إلى معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، قسم التراث الفكري (بغداد، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ٤٧.

على كشفِ الأسباب والمسببات حين صاحبَ معاركَ التاريخ الكبرى، ووفر للباحث مادةً غنيةً بالمعلومات، فكان الشعر المصدر الرئيس الذى حفظ به العرب الكثير من المعلومات المختزنة[١]. فوفر للباحثين رؤية شاملة ومتعددة الأطراف منحت المنهج التاريخى رافدًا إضافيًا شارك فى إنضاج المظاهر الحضارية للبحث التاريخى[٢].

يعد الشاعر لسان قبيلته والمتحدث باسمها، فإذا قال شعرًا تناقله أفرادها وأشاعوه، وخاصة عندما يتعلق هذا الشعر بالصراع مع القبائل الأخرى، فأصبح الشعر وسيلة لحفظ الوقائع والأيام والحروب، لما يثيره فى نفوس الشعراء من فخر وانتصار واعتزاز[٣]، فكان الشعر مصدرًا من مصادر تاريخ أيام العرب حتى غدت النقائض وثيقةً تاريخية مهمة فى فهم الكثير من الأيام على مدى التاريخ العربي[٤]. ذلك لأن الروايات القبلية كانت تتداول شفاهًا وبصورة نثرية، فأدى الشعر دورًا أساسيًا فى إيصالها وخصوصًا إذا كان الشاعر قد شارك فى الأحداث بما يعطيها حيوية وتأثيرًا بحيث أصبح الشعر بمرور الزمن الوثيقة التى تعزز صحة القصة، أو صحة الواقعة التاريخية، فقد تسابقت القبائل فى حفظ أيامها وأشعارها فحفظت تاريخًا حافلاً بالأحداث.

أثرَّ الشعر تأثيرًا واضحًا فى تدوين الأخبار والسير، وانتشار رواية القصص والوقائع فحفلت كتب التاريخ بالأشعار الكثيرة التى كانت شاهدًا حيًا له أهميته فى توثيق الأحداث، فقد شجع معاوية بن أبى سفيان (ت، ٦٠هـ/ ٦٩٧م) على تدوين سيرة تُبعَّ وأشعاره[٥]، بما يجعل الشعر دليلاً على صدق ما يروى، فهو كالشاهد

(١) حسين، عبدالله محمود: تدوين الحروب في الشعر الجاهلي (منشورات مكتبة النهضة، مطابع دار التضامن، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)، ٣٩-٤٠.

(٢) القيسي: الشعر والتاريخ، ١٦.

(٣) ضيف، شوقي: العسر الإسلامي (دار المعارف بمصر، ١٩٦٣م)، ٢٤٥.

(٤) الدوري، عبدالعزيز: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب (دار المشرق، بيروت، ١٩٨٣م)، ١٠٦.

(٥) ينظر الأصفهاني، علبي بن الحسين (ت، ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م): الأغاني، الجزء ١٨ (دار الثقافة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ١٨٢؛ ياقوت: معجم الأدباء، ١٢/ ٧٨.

الذى يوضح الحدث ويفسر ما غمض منه. لذا صارت الكتابة فى الأحداث التاريخية بما فيها سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، ومغازيه تعتمد على الشعر فى توثيق رواياتها والدليل على ذلك ما جاء عند ابن إسحاق (ت، ١٥١هـ/ ٧٦٨م) فى كتابه (السيرة) وعلى ما بذله ابن هشام (ت، ٢١٣هـ/ ٨٢٨م) فى تهذيب هذا الكتاب وحذف الكثير من الشعر الذى ورد فى كتاب ابن إسحاق، إلا أن سيرة ابن هشام لا زالت تحوى الكثير من الشعر[١].

مما لا ريب فيه أن معرفة الأنساب صارت موردًا من موارد معرفة تاريخ العرب، طيلة قرنين من ظهور الإسلام[٢]، والتى توارثت تلك المعارف عن طريق الشعر، خاصة شعر النقائض، وفى الروايات العائلية والقبلية، وفى سجلات دواوين الجند[٣]. وقد أسهم الشعر بشكل خاص فى تدوين وحفظ الأنساب، فأسهم بذلك فى حفظ الأحداث التاريخية التى وثقها الشعر والتى تعاون النسَّابون والمؤرخون على حفظها والاهتمام بروايتها[٤]؛ لذا كثرت الإشارات – فى الشعر – إلى النسب فى القبائل، وإلى قحطان وعدنان[٥]، فكتاب (الإكليل) حافل بالإشارات الشعرية إلى الأنساب، كما فى توثيقه لنسب عبدشمس بن يشجب:

---

(١) ينظر على سبيل المثال ابن إسحق، محمد بن إسحق المطلبي (ت، ١٥١هـ/ ٧٣٣م): السير والمغازي، تحقيق سهيل زكار (دار الفكر، بيروت، دون تاريخ)، ٦٢-٦٤، ٣١١، ٣٢٠-٢٣٢؛ ابن هشام، عبدالملك بن هشام المعافري (ت، ٢١٣هـ/ ٨٢٨م): السيرة، تقديم وتعليق وضبط طه عبدالرؤوف سعد، الجزء الأول (دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥م)، ٢٤٠، ٢٨٨، ٢/ ٦٦، ١٨١، ٣/ ٦٣، ١٥٦-١٦١، ٤/ ٤٥، ١٠٨.

(٢) حمادي: الحركة الفكرية، ١١٨.

(٣) الدوري: بحث، ٤٠.

(٤) ينظر على سبيل المثال ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب (ت، ٢٠٤هـ/ ٨١٩م): جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسن (عالم الكتب، مكتبة النهضة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م)، ٤٨، ١٩٠، ٢٠٧، ٣٧٠، ٥١٣، ٩٥٤؛ الطبري: تاريخ، ٢/ ٢٧٤؛ ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الندلسي (ت، ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م): جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٨٢م)، ٨٢، ١٧٢، ٢٩٦.

(٥) الدوري، عبدالعزيز: التكوين التاريخي للأمة العربية (مركز دراسات الوحدة العربية، دار المستقبل العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م)، ٥٠.

وأبيـــنا عـــبدُ شمـــسٍ وابـــنُه زَرعـةَ القـيلِ وذى الـتاج قَطـن[1]

وقد تضمن كتب الأنساب شعرًا يوثق بعض الأنساب مما أسهم فى توثيقها وحفظها، وهو الذى شجع القبائل على جعل الشعر سجلاً لوقائعها[2]، ومفاخرها ومآثرها القبلية وهو يتضمن إشارات واضحة إلى أنساب بعض القبائل والبطون.

وللشعر المدون فى المصادر التاريخية دور كبير فى تحديد مواقع العرب وغيرهم وتسميتها ورسم معالمها وطبيعة ظروفها المناخية والاقتصادية، ومن الشعر فهم الجغرافيون جوانب كثيرة من علمهم والتى أودعوها فى بطون مؤلفاتهم، ومنهم الهمداني[3]، وياقوت[4]، والقزويني[5]... وغيرهم. فصور الشعر مواقع الرب وواقع حياتهم من خلال تصوير الأمكنة وتعرض لتصوير المحسوسات المحيطة بالإنسان وبالذات بيئته التى هى وعاء ينبثق من داخله مجتمع استطاع أن يكون حضارة عريقة وينشئ مجتمعًا قويًا استنهض كل جوانب الحياة واستثمرها، فلولا هذه البيئة لما ولد مجتمع عربى إسلامى كان له مكانته ووجوده وتأثيره.

أبرز الشعر القيم الاجتماعية والأعراف والمعتقدات التى كانت سائدة فى المجتمع العربى، فوثقها وعمل على إيصالها على الأجيال اللاحقة، فكان صورة صادقة لأحاسيس السواد الأعظم، بما يكشف عن اللقاء الإنسانى

---

(١) الهمداني، الحسن بن علي بن يعقوب (ت، ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م): الإكليل، تحقيق محمد بن علي الأكوع، الجزء الثاني (دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠م)، ٥٥.

(٢) ينظر: النص، إحسان: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموري (دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م)، ٥٤٤؛ مصطفى، شاكر: التاريخ العربي والمؤرخون، الجزء الأول (دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م)، ١٠٤.

(٣) الهمداني: الإكليل، ٨/ ١٠، ٤٤، ٥٩؛ صفة، ٣٢٤-٤٠٤.

(٤) ياقوت، ياقوت بن عبدالله الحموي (ت، ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): معجم البلدان، الجزء الأول (دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ)، ٥٠، ١٣٠، ٢٠٦، ٢/ ٤١، ١٩٥، ٣٢٠، ٣/ ٦٢، ١٥٦، ٢٥١، ٣٣٥، ٤٥٦، ٤/ ١٣٣، ٢٤٣، ٣١٥، ٤٠٨، ٥/ ٦٧، ١٢٥، ٢١٦، ٣٣٤، ٤٤١.

(٥) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت، ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م): آثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر، بيروت، دون تاريخ)، ٥١، ٩٩، ١٣٤، ٢٠٣/ ٤٨٥، ٥٦٢.

والوجدانى بين الشاعر وقبيلته أو مجتمعه، فعرض الشعر بذلك حياة العامة مثلما عرض حياة الخاصة[1].

لقد عكس الشعر واقع الأحداث الإنسانية وما فيها من مضامين فكرية وشعور إنسانى وطبائع اجتماعية ومعتقدات دينية، وقيم أخلاقية تكشف عن كيفية التعامل بين الإنسان وبيئته ومجتمعه، كما عكس نتائج هذه الاتجاهات وإفرازاتها العقائدية والسياسية والاقتصادية، وفى كل ذلك دلالة على وجود ترابط وثيق بين الشعر والتاريخ، فهما رفيقان فى درب واحد.

أسهم الشعر فى تفسير ما غمض من آيات القرآن الكريم، بوصفه حامل ثقافة العرب، ومعجم ألفاظها، والمعبر عن مشاعرها وحواسها حتى أن ابن عباس قال: "إذا قرأتم من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب"[2]، كما أسهم فى تفسير غريب القرآن الكريم[3] وغريب الحديث[4] النبوى

---

(١) ينظر على سبيل المثال عبيد بن الأبرص (ت، نحو ٥٥٥م): الديوان، تحقيق: تشارلس ليال (دار صادر، دار بيروت، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)، ٢٦، ٣١، ٤١، ١٣٨، ١٤١؛ أمية بن أبي الصلت (ت، نحو ٩هـ/ ٦٣٠م): حياته وشعره، دراسة وتحقيق: بهجة عبد الغفور الحديثي (دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٩١م)، ٥٠، ٩١، ٩٥، ١٥٧، ١٨٤/ ٢١٤، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٧٠، ٢٩٠، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣١٢، ٣١٩، ٣٢١؛ الحوفي، محمد أحمد: الحياة العربية في الشعر الجاهلي (دار القلم، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٧٢م)، ٢١٤، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٧٦، ٢٩٩، ٣٠٨، ٣٢٢، ٣٣٩، ٣٧٠، ٤٣٤.

(٢) ابن رشيق: العمدة، ١/ ٣.

(٣) ينظر على سبيل المثال في تفسير القرآن الكريم: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت، ٣١٠هـ/ ٩٢٣م): جامع البيان في تفسير القرآن، الجزء السابع (دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م)، ١٥١، ٨/ ٣٤، ١٠/ ٩٣، ١٥٨؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت، ٧٤٤هـ/ ١٣٧٢م): تفسير القرآن العظيم، الجزء الثالث، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م)، ٣٧، ٤٠، ١٣٦، ٢٧٣، ٤٣١، ٤/ ٢٦، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٧٤، ٢٧٧، ٣٠٤، ٤٤١.

(٤) ينظر على سبيل المثال في شرح غريب الحديث النبوي الشريف: ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت، ٢٧٦هـ/ ٨٩٩م): غريب الحديث، تحقيق: د. عبدالله الجبوري، الجزء الأول (وزارة الأوقاف – إحياء التراث الإسلامي، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ/ ذ٩٧٧م)، ٣٠٤، ٤٣٢، ٤٩٠، ٢/ ٦١، ١٧، ٥١٦.

الشريف، فكان الشعر مادة لغوية ثرية قادرة على كشف الكثير من غوامض النصوص بيان أصولها الواقعية الضاربة فى أعماق التراث العربى وتاريخ العرب قبل الإسلام.

عصر ما قبل الإسلام:

اهتم العرب فى رواية الشعر وتداوله لأنه يعبر عن إحساسهم ويصور أحداثهم ويرسم لهم المعانى التى يرنون إليها، فهو سجلهم الذى حفظ مآثرهم وأيامهم وما كانوا لهم فيه من عادات وتقاليد وما سَموا إليه من معتقدات روحية ومعانى إنسانية، ومما لا شك أن الاهتمام لدى العرب قد ارتبط ارتباطًا وثيقًا مع تاريخهم الطويل.

وبالإمكان القول أن توجه العرب إلى الشعر إنما هو مرتبط مع بدء تكوينهم الحضارى، ولا نتفق كثيرًا من تحديد زمن معلوم لمثل هذا التوجه الذى يحاول أن يضع تاريخًا تقريبيًا لبداية الشعر كقول الجاحظ: "وإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له – إلى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام"[1] لأن القرنين من الزمن التى سبقت ظهور الإسلام لا يمكن أن تكون بداية للشعر عند العرب، إلا إذا قصد من ذلك الشعر الموثوق المعبر عن الحدث وطبيعة الحياة وهذا ما نميل إليه فى تأويل ما ذهب إليه الجاحظ فى هذا النص.

وثمة حرص واضح عند العرب لحفظ الشعر لما فيه من معلومات تخص تاريخهم وما وقع فيه من أحداث، وساعدهم على ذلك سلامة الذاكرة وسرعة الحفظ بحيث أنه كان لا يدخل شيئًا إلى مسامع الفرد العربى إلا حفظه، واستمرت هذه الخاصية حتى بعد ظهور الإسلام، فلا نقرأ قصة من قصص أيام العرب، إلا ونجد فيها شعرًا ينسب إلى أحد الأبطال الذين ساهموا فيها، أو شعرا يذكر فيه قائله قومه أو

---

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت، ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م): الحيوان، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون الجزء الأول (شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م)، ٧٤.

خصومهم، فكان أن حفظ الشعر تلك الأيام فى ذاكرة الأجيال، ثم أقدم المدون فدونها، فوصلت إلى أيام التدوين[1] وتناقلتها كتب ومؤلفات اللاَّحقين بعده، فظل الشعر أداة للتوثيق، وبقيت قوة الكلمة مواكبة لقوة الاندفاع من أجل تسجيل المجد القبلي[2] ولذلك أرَّخت كل قبيلة بيوم مشهود من أيامها المشهورة فى حروبها[3].

زعم "الإخباريون أن نوحًا عليه السلام خرج من السفينة يوم عاشوراء، واحتجوا بأشعار المتقدمين فى هذه القصص"[4]. كما فى قول الشاعر أمية بن أبي[5] الصلت:

وقد تُدرِك الإنسانَ رحمةُ ربِّه ... ولو كانَ تحتَ الأرضِ سبعينَ واديا
تَعال وتُدركهُ من اللهِ رَحمَةٌ ... ويُضحى ثَناه فى البريّةِ زاكيا
كرَحمةِ نُوح يَومَ حَلَّ بسبعةٍ ... لَهبطِهِ كانوا جَميعًا ثَمانيا
فلما استنارَ اللهُ تنور أرضه ... ففارَ وكانَ الماءُ فى الأرضِ سَاجِيا[6]

وقال فى قصيدة أخرى:

فسارت بهم أيّامها ثمَّ سبعةً ... وستَّ لَيالٍ دائبات غواطيا[7]

---

(١) علي: المفصل، ٩/ ٦٦.

(٢) القيسي، نوري حمودي: البطل في التراث (دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٨ م)، ٣٧.

(٣) المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت، ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): التنبيه والإشراف (دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ١٧٤.

(٤) ينظر المقدسي، المطهر بن طاهر (ت، ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م): البدء والتاريخ المنسوب لأبي زيد البلخي، شرح كلمان هوار، الجزء الثالث مطبعة برطوند، شارلون – باريس، ١٩٠٣م)، ٢٤.

(٥) من شعراء ثقيف بالطائف أدرك الإسلام ولم يسلم، شعره له علاقة بالقصائد والديانات (ت، نحو ٩هـ/ ٦٣٠م). ترجمته: المرزباني، محمد بن عمران بن موسى (ت، ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م): الموشح، تحقيق علي محمد البجاوي (دار نهضة مصر، مطبعة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦٥م)، ١١٢؛ البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز الأندلسي: سمط الآلي في شرح أمالي القالي، تحقيق عبدالعزيز الميمني، الجزء الأول (م\طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٤هـ/ ١٩٦٣م)، ٣٦٢.

(٦) شعره، ٣١٧-٣١٨.

(٧) نفسه، ٣١٩. ينظر أيضًا، ٣١٢.

لقد عرض الشعر أحداث التاريخ البعيدة فى الزمن، ومنها الطوفان، ولذلك استعان المؤرخون بالشعر لتوثيق الأحداث، ومنها الواردة فى الكتب الدينية كالقرآن الكريم، ومن هؤلاء أمية بن أبى الصلت الذى كان على جانب كبير من المعرفة الدينية ورغب عن عبادة الأصنام وكان يحكى قصص الأنبياء[1]، لذا قال عنه النبى (صلى الله عليه وسلم): "فلقد كان يسلم فى شعره"[2] واستشهد الطبرى بشعره عندما بيَّن السبب الذى من أجلهِ أمر نبى الله إبراهيم "عليه السلام" بذبح ابنه، وأن ذلك كان من نذر إبراهيم كان قد نذره، فأمره الله بالوفاء به[3]، وفى ذلك يقول أمية:

ولإبـــراهيم المُوفـــى بالـــنذ ... رِ احتـــسابًا واحمِـــل الأجـــزالِ
بِكـــرهُ لم يكـــن ليـــصبرَ عـــنه ... أو يـــراه فـــى معـــشرٍ أقـــتالِ
أبنـــى إنّـــى نـــذرتُك للّـــهِ ... شَـحيطًا فاصبرْ فـدى لـك حَالِـي
فأجَـابَ الغـلامُ أن قـال فـيه ... كـلُّ شـيء للهِ غـيرُ انـتحالِ
أبتـــى إنّنـــى جَـــزيتُك بـــاللّـ ... ـهِ تَقـيًا بـهِ علـى كـلِّ حـالِ
فـاقْضِ مـا قَـد نَـذرت للهِ وأكفُـفْ ... عـن دَمِـى أنْ يَمـسه سـربالِي
واشَدُدْ الصَّفَدَ لا أحيدُ عَن السِّكِين ... حَـيدَ الأسـيرِ ذِى الأغَـلالِ[4]

فقد سرد الشاعر حادثةَ الذبح سردًا يعبر عن نضجِ رواية هذه الحكاية وكثرة تداولها، وعلى تمكن الشاعر فى ترتيبها لاطلاعه على مصادر دينية قديمة

---

(١) ينظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت، ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م): الشعر والشعراء، تحقيق محمد يوسف نجم وإحسان عباس، القسم الأول (دار الثقافة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م)، ٣٦٩.

(٢) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت، ٢٦١هـ/ ٨٧٤م): صحيح مسلم، الجزء الثاني (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ٣٨٥.

(٣) الطبري: تاريخ، ١/ ٢٧٧.:

(٤) شعره، ٢٥١-٢٥٢: الطبري: تاريخ، ١/ ٢٧٨ مع شيء من الاختلافات.

استطاع المؤرخ الاستفادة منها فى بحث هذا الحدث التاريخى والدينى بحثًا معززًا بالشعر.

كان يوم (جَبلة) قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة قبل مولد النبى، صلى الله عليه وسلم، بسبع عشرة سنة[1]. وفى ذلك يقول حليف بنى نمير بن عامر، وهو المعقر بن أوس بن حمار البارقى:

أَمِنْ آلِ شَعثاءَ الحجولِ البواكرِ ... مع الليلِ أَم زَالت قُبيلُ الأباعِرِ
وَحلّتْ سُليمى فى هِضابٍ وأيكةٍ ... فَليسَ عليها يومَ ذلكَ قادِرِ
وألقَتْ عَصاها واستقرَّ بها النَوَى ... كما قرَّ عَينًا بالإيابِ المُسافِرِ
وصَبحنَا أَملاكًها بكَتيبةٍ ... عليها إذا أَمست مِن اللهِ ناظِرِ
مُعاوية بن الجون ذبيان حوله ... وحسَّان فى جمعِ الرّباب مكاثِرِ
فَمروا بأطنابِ البيوتِ فَردَّهُم ... رِجالٌ بأطرافِ الرّماحِ مساعِرِ
وَقَد جَمعوا جَمعًا كأَنَّ زهاءَه ... جَرادٌ هَوى فى هَبوةٍ متطايرِ[2]

توثق القصيدة مقدار الجمع الذى كان وتبين حجمه بما يعبر عن أثر الشاعر فى حفظ تفاصيل هذا الحدث التاريخى وتحديد معالم الوقعة والإشارة على شخصياتها من أمثال معاوية وحسان، وكيف تلاحم الطرفان عند أطناب البيوت بما يكشف عن خطورةِ الصراع وحراجة الموقف حتى استطاع المدافعون عن حمى القبيلة ردَّ المهاجمين بعد أن جمعوا جمعًا يشبه الجراد فى كثرته.

حين خمد أوار الحرب بين قبيلتى عبس وذبيان، قال الشاعر زهير بن أبى سلمى[3]:

---

(١) أبو عبيدة: النقائض، ٢/ ٢٧٦؛ وعند الطبري أن يوم جبلة كان عام الفيل. ينظر: تاريخه: ٢/ ١٥٤.

(٢) أبو عبيدة: النقائض، ٢/ ٦٧٦.

(٣) زهير بن أبي سلمى الزمني، شاعر من الطبقة الأولى، من أصحاب المعلقات. أدرك الإسلام (ت، ٦١٥م). ترجمته: ابن سلام: طبقات، ١/ ٥١؛ الأصفهاني: الأغاني، ١٠/ ٢٩٨.

فأقسمتُ بالبيتِ الذى طَافَ حولَه ... رجالٌ بنوه مِن قريشٍ وجُرهُم
يَمينًا لنعمَ السيّدان وجدتُما ... على كلِّ حالٍ من سحيلٍ ومبرم
تَداركتُما عَبسًا وذُبيان بَعدَمَا ... تَفانوا ودَقّوا بينَهم عِطرَ مِنشَمِ[1]

فإذا كان زهير "نظامًا متوقيًا"[2] يديم النظر فى القصيدة حولاً كاملاً، فإنه لابد وأن يكون ملمًا بأيام العرب وتاريخهم، وأن يكون دقيقًا فى توثيق الأحداث وتصويرها حتى وصلت إلينا على هذه الصورة حيث أشار إلى قبيلة جُرهم وقريش، مثلما أشار إلى منشم العطارة التى يضرب المثل بعطرها.

كانت العرب تؤرخ بوفيات الأشخاص المهمين، فلما "مات الوليد بن المغيرة أرخت قريش بوفاته لإعظامها إياه حتى كان عام الفيل فجعلوه تاريخًا"[3] كما أرخت "بوفاة هشام بن المغيرة تسع سنين إلى أن كانت السنة التى بنوا فيها الكعبة فأرخوا بها"[4]. فحين غزا أبرهة مكة جاء عبدالمطلب إلى باب الكعبة فتعلق به[5] وقال:

لا هُمَّ إن المرءَ يَمنـ ... ـعُ رَحلَه فامَنعْ حِلالك
لا يَغلبَنَّ صَليبُهم ... ومحالُهم عدوًا محالك
ولئن فعلتَ فإنّه ... أمرٌ تتمُّ بهِ فِعالك[6]

---

(١) زهير بن أبي سلمى (ت، ٦١٥م): ديوانه بشرح ثعلب، أحمد بن يحيى بن زيد (ت، ٢٩١هـ/ ٩٠٣ م)، (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب – الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م)، ١٤-١٥.

(٢) السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر (ت، ٩١١هـ/ ١٥٠٥م): شرح شواهد المغني، تصحيح وتعليق: محمد محمود ابن التلاميذ وأحمد ظافر كوجان، القسم الثاني. (لجنة التراث العربي، دمشق، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦م)، ٢٥٦.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ١٦/ ١٣٦.

(٤) نفسه.

(٥) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهيب بن واضح (ت، ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م): تاريخ اليعقوبي، تعليق محمد صادق بحر العلوم، الجزء الأول (المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤م)، ٢٢٢.

(٦) ابن إسحق: السير والمغازي، ٦٢؛ ابن هشام: السيرة، ١/ ٤٥؛ اليعقوبي: تاريخ، ١/ ٢٢٣؛ الطبري: تاريخ، ٢/ ١٣٨٩ مع اختلاف بعض الألفاظ.

لقد حفز الحدث التاريخى زعيم أهل مكة لأن يستنصر ربه من أراد به وبدينه وببلده شرًا، فاقترن شعره بصفة العدو الدينية، وهو الصليب رمز المسيحية، فلما انصرف أصحاب الفيل عن مكة قال عبدالمطلب:

مَـنعتَ الأرضَ التـى حَمـيت ... مـن اللـئام فلَـم تَخلُـفْ لَهـم دَارا
مَـنعتَ مكـةَ مـنهم إنّنـى رجـلٌ ... ذو أُسـرة لم تكـن فـى الحـبّ غَـدارا
إذا قلـتُ يـا صـاحبَ الجيشانِ إنَّ لنا ... مِـن دونِ أن يهـدم المعمـورُ أخطـارا
فـسارَ فـى جيـشه بالفـيلِ مُقـتدرًا ... وسِـرْتَ مُستبـسلاً للمـوتِ صـبّارا
فـى فِتيةٍ مِـنْ قُـريشٍ لـيسَ ميـتُهم ... بمـورثٍ حَـيّهم شَـيْئًا ولا عَـارا[1]

كان انتصار قريش على جيش أصحاب الفيل مؤثرًا فأسْهَم فى خلودها فى الأذهان وجعل منها تاريخًا مشرفًا للعرب قبل ظهور الإسلام، ودفع الشعراء إلى توثيقها، ولما كان عبدالمطلب فى المواجهة فإن شعره هذا يعد وثيقة تاريخية مهمة، وهو ما دفع الشعراء إلى توثيق مواقعها وحركة الجيوش فيها، فكان الشعر تخليدًا لها من خلال تثبيت أماكن الجيوش وتحديد مواضعها الجغرافية بعد أن اندرست بتقادم الزمن عليها وبذلك صار الشعر سجلاً "للتاريخ الزمانى والمكانى لهذه المواقع"[2].

فهذا عبدالله بن الزبعرى[3] (ت، ١٥هـ/ ٦٣٦م) يشير إلى وقعة الفيل فيقول:

تـنكلوا عـن بطـنِ مَكـةَ إنهـا ... كانـت قـديمًا لا يُـرامُ حـريمُها
لم تخلـقِ الـشِّعرى لـيالى حُـرِّشمَتْ ... إذ لا عزيـزَ مـن الأنـامِ يَـرومُها
سـائل أمـير الجـيوش عـنها مـا رأى ... ولـسوف يُبنـى الجـاهلينَ علـيمُها
سـتونَ ألفًـا لم يؤوبـوا أرضـهم ... ولمَ يَعِـشْ بعـدَ الإيـابِ سَـقيمُها

---

(١) ابن إسحق: السير والمغازي، ٦٤.

(٢) القيسي: الشعر والتاريخ، ٣٨.

(٣) عبدالله بن الزبعري بن قيس الفهري، صحابي في شعراء قريش. ترجمته: الأصفهاني: الأغاني، ١٥/ ١٣٨؛ السيوطي: شرح، ٢/ ٥٥١.

كانَـت بهـا عـادٌ وجُـرهُمُ قـبلَهم والله مـن فـوقِ العِـبادِ يُقـيمُها[1]

يحدد الشاعر عدة الجيش الغازى بستين ألفًا، ويذكر أنهم لم يؤوبوا إلى وطنهم، أما السَّقيم الذى لم يعش فهو أبرهة بن يكسوم المعروف بالأشرم[2]. فقد حملوه معهم حين أصيب حتى مات بصنعاء[3].

وقد ذكر أمية بن أبى الصلت (ت، نحو ٩هـ/ ٦٣٠م) ما لاقاه جيش أبرهة، فكان كلهم مكسور الساق:

إن آيـــاتِ ربّـــنا بيـــناتٌ مـــا يُمـــارى فـــيهن إلاّ الكفـــورُ
خلـــقَ اللـــيلَ والـــنهارَ فكـــلٌ مـــستبين حـــسابُه مقـــدورُ
ثـــم يجلـــو الظـــلام ربٌّ كـــريمٌ بمهـــارةٍ شُـــعاعها منـــثورُ
حـــبس الفـــيل بـــالمغمَّس حتـــى ظَـــلَّ يحـــبو كأنَّـــهُ معقـــورُ
لازمًـــا حلقـــه الجـــران كمـــا قُـــطَّ ـــــرَ مـــن كـــبكبٍ محـــدورُ
حـــولَه ملـــوك كِـــندةَ أبطـــا لٌ ملاويـــتُ فـــى الحـــروبِ صـــقورُ
خَلَّفـــوه ثـــم ابذعـــروا جمـــيعًا كُلُّهـــم ســـاقُه مكـــسور[4]

وهذا ما جعل الشعر سجلاً يتضمن بعض التفاصيل عن يوم الفيل، وما حدث فيه من تفاصيل تكشف عما حصل لجيش الغزاة.

وفى يوم ذى قار[5] الذى كان بين العرب والفرس، فقتل فيه جميع الفرس ومن معهم[6] قال الأعشى[7] (ت، ٧هـ/ ٦٢٩م):

---

(١) ابن الزبعري، عبدالله (ت، ١٥هـ/ ٦٣٦م): شعره، تحقيق يحيى الجبوري (مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ٤٩-٥٠.

(٢) الطبري: تاريخ، ٢/ ١٥٤.

(٣) ابن هشام: السيرة، ١/ ٥١.

(٤) شعره، ٣٣٧-٣٣٩.

(٥) ماء لبني بكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس. كما في: ياقوت: معجم البلدان، ٤/ ٢٩٣ (قار).

(٦) الطبري: تاريخ، ٢/ ٢١٠.

(٧) ميمون بن قيس بن جندل، شاعر أدرك الإسلام ولم يسلم (ت، ٧هـ/ ٦٢٩م). ترجمته: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ١/ ١٧٨؛ البكري: سمط، ١/ ٨٣.

فِدىً لبنى ذُهل بن شيبان ناقتي ... وراكبها يوم اللقاءِ وَقلّتِ
همُو ضربوا بالحنوِ حنوا قَراقِرٍ ... مُقدمة الهامرزِ حتى تولتِ
فلِلّه عينا من رأى من عصابةٍ ... أشدَّ على أيدى السُّعاةِ من التي
أتتهم من البطحاءِ يبرق بيضها ... وَقد رُفعت راياتها فاستقلّتِ
فثاروا وثرنا والمنية بيننا ... وهاجَت علينا غمرة فتجلّتِ
وقد شمّرت بالناس شمطاء لاقحٌ ... عوانٌ شديدةٌ همزُها فأضلّتِ
كفوا إذ أتى الهامرز تخفق فوقه ... كظلِّ العُقابِ إذ هَوتْ فتدلّتِ
وأحموا حِمى ما يمنعونَ فأصبحت ... لنا ظعن كانت وقوفًا فحلّتِ
أذاقوهمُو كأسًا من الموتِ مُرَّةً ... وقد بذخَت فرسانهم وأذلّتِ
سوابغهم بيضٌ خفاف وفوقَهم ... من البيضِ أمثالِ النجومِ استقلّتِ
ولَم يبقَ إلاّ ذات ريعٍ مفاضةٌ ... وأسهلَ منهم عصبة فأطلّتِ
فصبحهم بالحنوِ حنوِ قُراقِرٍ ... وذى قار منها الجنودَ فَفُلّتِ
على كُلِّ محبوكِ السَّراة كأنّه ... عقابٌ هوت من مَرقب إذ تعلّتِ
فجادت على الهامِرز وسط بيوتِهم ... شآبيب موتٍ أسبلت واستهلّتِ
تناهَت بنو الأحرار إذ صبرت لهم ... فوارسَ من شيبانَ غُلبٌ فولّتِ[1]

يعد هذا اليوم من الأيام التى لها وقع مؤثر فى تاريخ العرب قبل الإسلام، لأنه كشف عن استقلالية واضحة بالرأى، فلا غرو أن يتغنى الأعشى بها، فهو من قبيلة لاقت الأمرين من تسلط السَّاسانيين، فكان شاهد انتصار قبيلته على دولة الفرس، فقد كان الشعراء يتغنون بانتصار أبناء قومهم، مما بين الأثر المهم فى تاريخ تدوين الحروب والوقائع[2]. لذا كان شعر الأعشى وثيقة حية حملت معها الموقف

(١) الأعشى، ميمون بن قيس (ت، ٧هـ/ ٦٤١م): ديوانه: شرح وتعليق م. محمد حسين. (مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية، القاهرة، دون تاريخ)، ١٥٩-١٦١.
(٢) حسين: تدوين الحروب، ١٠٨.

الاجتماعى لهذه القبيلة، وموقف العرب الذين عانوا استهانة الفرس بوجودهم القومى والإنسانى والإقليمي؛ وبهذا غدا الشعر صورة للواقع وما يعكسه من صراعات ومواقف تشكل فى مجموعها رؤية عميقة للفعل الإنسانى المؤثر فى حركة التاريخ وقدرة الإنسان العربى على خلق مقومات الانتصار، وهذا بدوره مهم لظهور أمة قوية استطاعت أن تستوعب الرسالة الإسلامية وتنطلق منها نحو آفاق واسعة لتستعيد مجدها وعنفوانها وتؤسس حضارّة أصبحت موضع دراسة وبحث مستمرين منحت الإنسانية دفقة عالية من النمو والتقدم حتى الآن.

عصر الرسالة الإسلامية:

بعد مبعث النبى محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) وحمله رسالة الإسلام حدث صراع قوى بين عقائد أهل الشرك وعقيدة التوحيد الإسلامية أدت إلى هجرة المسلمين من مكة إلى يثرب (مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم)، ثم نشوء نواة الدولة العربية الإسلامية التى تأسست على تشريعات الرسالة الإسلامية السمحاء على وفق ما جاء به القرآن الكريم وسنة النبى (صلى الله عليه وسلم)، فكان ذلك مقدمة لبروز منطلق جديد يحدد بدء الرسالة، ثم بدء الهجرة النبوية المشرفة، فكان ذلك نقطة انطلاق نحو التاريخ.

وقد برزت الحاجة لدى أصحاب الدين الجديد على وسيلة إعلامية ليواجهوا بها الإعلام المضاد الذى يشنه شعراء مشركى قريش فى مكة، ولبيان موقف الإسلام من الشعر، فقد كان الشعر عند العرب أرقى معارفهم وأكثرها تأثيرًا، فجاء واضحًا وجليًا بعد أن أعجز القرآن العربى إعجازًا لفظيًا ومعنويًا، حتى جاء فى الذكر الحكيم: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ [1]. ويريد بهم الذين ((ذكروا الله فى كلامهم وقيل فى شعرهم وكلاهما صحيح مكفر لما سبق)) [2]. أى ما قدمه من

---

(١) سورة الشعراء: الآيات، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) ابن كثير: تفسير، ٣/ ٣٥٥.

حكمة أو حكمًا[1] مطابقًا للحق[2] على وفق المقياس الأخلاقى فى اجتناب الشر والالتزام بالخير، فكان التحوُّل فى أهمية الشعر وأثره فى الظروف السياسية والاجتماعية يعد تغييرًا خطيرًا فى مسيرة الشعر العربى، ومنعطفًا فى أغراضه ومراميه حتى اعتقد الأصمعى (ت، نحو ٢١٦هـ/ ٨٣١م) أن "طريق الشعر إذا أدخلته فى باب الخير الآن، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا فى الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره فى باب – من مراثى النبى صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهم وغيرهم – من شعره. وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول، مثل امرئ القيس، وزهير، والنابغة، من صفات الديار والرحل، والهجاء والمديح، والتشبيب بالنساء، وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار؛ فإذا أدخلته فى باب الخير الآن"[3]، فى حين يرى أحد الباحثين المحدثين أن الشعر فى صدر الإسلام نشط متأثرًا بالظروف السياسية والاجتماعية الجديدة فى الحواضر، وبالمفاهيم والقيم الإسلامية[4]. فانتقلت زعامة الشعر من البوادى إلى الحواضر، وهذا ما قلل من جزالته[5].

كان لشعر شعراء المشركين واليهود أثر كبير على نفوس المسلمين لما كان له من ذيوع وانتشار بين القبائل العربية الساكنة خارج المدينة والتى لا يصل إليها عامل التأثير إلا من خلال الشعر، والذى كان المشركون فيه أكثر سبقًا من المسلمين. ثم انتبه المسلمون على ما سبقهم فيه أعداؤهم فسابقوهم فى ذلك حتى صار لهم اثر واضح وظهر من بينهم الشعراء الكبار، وقالوا الشعر الكثير الذى حفظته المصادر والمؤلفات الأولى.

ولما أصبح الشعر سلاحًا فى مجابهة خصومهم غدا له أثره فى تدوين السيرة النبوية المشرفة وروايتها، فقد عرف مدونوها الشعر وحفظوه، فكانوا يروون الأشعار التى

---

(١) ينظر البخاري: الصحيح، ٨/ ٦٣؛ ابن ماجة: السنن، ٢/ ١٢٣٦.
(٢) ينظر ابن حجر: فتح الباري، ١٣/ ١٥٦.
(٣) المرزباني: الموشح، ٨٥.
(٤) الدوري: التكوين التاريخي، ٨٧.
(٥) علي: المفصل، ٩/ ٨٤٢.

ذكرها الرجال الذين ورد ذكرهم فى حوادث السيرة[1]. كما صار للشعر أثره فى تدوين الأحداث التاريخية، وفى توثيق الغزوات التى خاضها المسلمون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم خلال عصر الرسالة الإسلامية، لأنه كان يشجع الشعر الذى يستفيد من المعانى الإسلامية وتمثل خط الدعوة وفى هذا توجيه ظاهر للشاعر[2]، فى قدرته على التأثير فى الأحداث.

كان للشعر أثره فى نفوس أعداء المسلمين، كلما كان أثره فى تعزيز معنويات المسلمين وحثهم على تثبيت أقدامهم واستمرارهم من مناجزة الأعداء، ففى سنة (٢هـ/ ٦٢٣م)[3] حدثت وقعة بدر[4]، فقال حسان بن ثابت الأنصارى[5]:

لقد علمت قريش يومَ بدرٍ ... غَداةَ الأسرِ والقتلِ الشديدِ
بأنّا حين تشتجر العوالي ... حُماة الحربِ بعد أبى الوليدِ
قتلنا ابنى ربيعة حين ساروا ... إلينا مصافى مضاعفة الحديدِ
وقر بها حكيم يوم جاءت ... بنو النجار تخطر كالأُسودِ[6]

يشير الشاعر إلى انتصار المسلمين على خصومهم مشركى قريش فى هذه المعركة، وإلى العون الذى قدمه بنو النجار، وهم قوم الشاعر، وكيف فشا القتل والأسر فى

---

(١) القيسي: الشعر والتاريخ، ١٨.

(٢) الجبوري، يحيى: الإسلام والشعر (منشورات مكتبة النهضة، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٨٣٨هـ/ ١٩٦٤م)، ٥٧.

(٣) ابن خياط، خليفة بن خياط بن أبي هبيرة العصفري (ت، ٢٤٠هـ/ ٢٥٤م): تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، الجزء الأول (مطبعة الآداب، النجف، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧ م)، ١٥؛ الطبري: تاريخ، ٢/ ٤٤٦.

(٤) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء ينسب إلى بدر بن يخلد بن النصر بن كنانة، وقيل هو رجل من بني صخرة كما في ياقوت: معجم البلدان، ١/ ٣٥٧ (بدر).

(٥) صحابي شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، عمر حتى توفى سنة (٥٤هـ/ ٦٧٣م). ترجمته: ابن سلام: طبقات، ١/ ٢٢٠؛ البكري: سمط، ١/ ١٧١.

(٦) حسان بن ثابت الأنصاري (ت، ٥٤هـ/ ٦٧٣م): ديوانه، تحقيق سيد حنفي حسنين (دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م)، ٢٦٥؛ ينظر أيضًا: ابن هشام: السيرة، ٢/ ٢٦٨.

المشركين، وهذا ما جعل الشعر يوثق الحدث التاريخى، ويسهم فى تدوينه وترسيخه وشيوعه فى أوساط العرب، فكان وسيلة إعلامية كبيرة للرسالة الإسلامية بين قبائل العرب، فأصبحت وقعة بدر منعطفًا خطيرًا فى انتشار الدين الجديد، وفى تعزيز ثقة المسلمين بأنفسهم، وخصوصًا أن الشعرَ سهلُ الحفظِ، جميلُ الوقعِ، قوى التأثير، واسعُ الانتشار.

ونتيجة تعرض المسلمين إلى هجاء مستمر من شعراء مشركى قريش أخذ شعراء المسلمين من الأنصار فى الرد عليهم، وهجاء المشركين بوصف الشعر أداةً إعلاميةً مهمةً، وسلاحًا لفظيًا مؤثرًا، فأخذ كعب بن مالك الأنصارى[1] يهجو المشركينَ ويدافع عن المسلمين فيقول:

لعَمرُ أبيكما يا بنى لؤى ... على زهوِ لديكم وانتخاءِ
لما حامَت فوارسكم ببدرٍ ... ولا صبروا بهِ عند اللقاءِ
وردنا بنورِ اللهِ بأمرِ ... من اللهِ أحُكم بالقَضاءِ
فما ظفرت فوارسُكم ببدرٍ ... وما رجعوا إليكم بالسَّواءِ
فلا تعجَل أبا سفيان وارقَب ... جيادَ الخيلِ تطلع من كَدَاءِ
بنصرِ الله روح القدس فيها ... ومِيكال فيا طيبَ المَلاءِ[2]

تبدو الروح الإسلامية ومفردات الدين الجديد واضحة مما يبرز مدى تأثير العقيدة الإسلامية على هذه القصيدة، فقد تضمنت مفردات مثل: نور الله، وروح الله، وروح القدس.

فى الجانب الآخر كانَ شاعر مشركى قريش عبدالله بن الزبعرى (ت، ١٥هـ/ ٦٣٦م) يبكى قتلى بدر من المشركين فيقول:

---

(١) صحابي توفي في خلافة علي بن أبي طالب، أحد شعراء الأنصار (ت، نحو ٤٠هـ/ ٦٦٠م): ترجمته الأصفهاني: الأغاني، ١٦/ ١٦٤؛ السيوطي: شرح، ١/ ٣٥٣.

(٢) كعب بن مالك الأنصاري (ت، نحو ٤٠هـ/ ٦٦٠م): ديوانه، دراسة وتحقيق سامي مكي العاني (منشورات مكتبة النهضة، مطبعة المعارف، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، ١٦٩؛ ينظر: ابن هشام: السيرة، ٢/ ٢٧٢-٢٧٣.

مـاذا علـى بـدرٍ ومـاذا حـولَهُ ... مـن فتـيةٍ بـيضِ الوجـوهِ كـرامِ
تـركوا نُبـيهًا خلفَهـم ومنـبِّهًا ... وابنـى ربـيعَة خـيرَ خَـصمٍ فِـئامِ
والحـارث الفـيَّاضَ يـبرُقُ وجهُـهُ ... كالـبَدرِ جَلَّـى لـيلةَ الإظـلامِ
والعاصـى بـن مُنـبه ذا مِـرَّةٍ ... رُمُحًـا تمـيمًا غـير ذى أَوصـامِ
تَنمـى بـهِ أعـراقُه وجـدودُه ... ومآثِـرُ الأخـوالِ والأعمـامِ
وإذا بكـى بـاكٍ فأعـول شَـجوهُ ... لعلـى الـرئيسِ الماجـدِ ابـن هـشامِ
حـيَّا الإلـهُ أبـا الولـيد ورهطَـهُ ... رَبُّ الأنـامِ وخـصَّهم بـسلامِ[1]

تضمن هذا الشعر رثاءً للأموات، ومدحًا للأحياء، وكشفًا لجانبٍ من ظروف المشركين وهزيمتهم فى وقعة بدر. كانت الحرب سجالاً بين المسلمين وبين خصومهم من مشركى قريش ومن حالفهم حتى كانت وقعة أحد[2] فى السنة الثالثة[3] من الهجرة التى خسر فيها المسلمون أمامَ المشركين الذين تصاعدت معنوياتهم فنشط شاعرهم ابن الزبعرى بالقول:

يـا غُـرابَ الـبينِ أسمعـت فَقُـل ... إنّمـا تـنطِقُ شـيئًا قَـدْ فُعِـلْ
إن للخـيرِ وللـشّرّ مَـدىً ... وكِـلا ذلِـكَ وَجـهٌ وقُـبَلْ
والعطـياتُ خِـساسٌ بيـنهم ... وسَـواءٌ قَـبرُ مُثـرٍ ومُقِـلْ
كُـلُّ عَـيشٍ ونعـيمٍ زائِـلٌ ... وبـناتُ الدَّهـرِ يلعـبنَ بكُـلْ
أَبلِغَـا حـسَّانَ عَنِّـى آيَـةً ... فقـريضُ الـشِّعرِ يـشفى ذا الغُلَـلْ[4]

ثمة إشارة واضحة إلى عقيدةِ التشاؤم من الغراب ونذره بالشؤم، وإشارة أخرى إلى شاعر الرسول (صلى الله عليه وسلم) حسان بن ثابت، وهى بداية لهجوم ساخن

---

(١) ابن الزبعري: شعره، ٤٧؛ ابن هشام: السيرة، ٢/ ٢٦٥.
(٢) جبل بينه وبين المدينة قرابة ميل في شماليّها. ياقوت: معجم البلدان، ١/ ١٠٩ (أحد).
(٣) ابن خياط: تاريخ، ١/ ٢٦؛ الطبري: تاريخ، ٢/ ٤٩٩.
(٤) شعره، ٤١.

يكشف عن تصاعد معنويات المشركين بعد وقعة أحد وإحساسهم بنشوةِ الانتصار إلى أن يقول فى هذه القصيدة أيضًا:

ليتَ أشياخى ببدرٍ شهدوا ... جَزعَ الخزرجِ من وقعِ الأسَلْ
حين حكت بقُباءٍ بِركَهَا ... واستمرَّ القتلُ فى عبدِ الأَشَلْ
ثم حفّوا عند ذاكمُ رقّصًا ... رَقَصَ الحفّانِ يعلو فى الجَبَلْ
فقاتلنا الضِّعفَ من أشرافِهم ... وَعَدَلنا مَيلَ بَدرٍ فاعتدَلْ[1]

وبالرغم من خسارة المسلمين فى وقعة أحد وصعود معنويات المشركين بعدها، إلا أن شعراء المسلمين لم يثنهم ذلك من الرد على خصومهم لشد عزيمة المسلمين، والكشف عن بلائهم فى القتال للتقليل من قيمة نصر أعدائهم، فأجاب حسان بن ثابت ابن الزبعرى قائلاً:

ذهبَت بابنِ الزِّبعرى وقعةٌ ... كانَ مِنّا الفضلُ فيها لَو عَدَلْ
ولقد نِلتُم ونلنا منكمُ ... وكذاكَ الحربُ أحيانًا دُولْ
إذ شَددنا شدة صادقةً ... فاجأناكُم إلى سفحِ الجَبَلْ
إذ تولّون على أعقابِكم ... هَربًا فى الشِّعبِ أشباه النَّمَلْ
نضعُ الخطّى فى أكتافِكم ... حيثُ نهوى عَلَلاً بعدَ نَهَلْ
يخرِجُ الأكدَر من أستاهِكم ... كَسِلاحِ النيبِ يأكلن العَصَلْ
وشَدخنا فى مقامٍ واحدٍ ... منكم سبعين غير المُنتحلْ
وأسرنا منكم أمثالهم ... فانصرفتم مِثل إفلاتِ الحَجَلْ
ضاقَ عنا الشِّعب إذ نزعُهُ ... وملأنا منهم الرِّجَلْ[2]

تمخض هذا التهاجى بين شعراء المسلمين وخصومهم من شعراء مشركى قريش عن انتعاش شعر النقائض الذى يقوم على المناقضة، أى ينقض الشاعر الآخر ما قاله

(١) نفسه، ٤٢؛ ابن هشام: السيرة، ٣/ ٦٩-٧٠.
(٢) ديوانه، ٩٣-٩٤؛ ابن هشام: السيرة، ٣/ ٦٩-٧٠.

الأول[1]. كان بذلك ظهور النقيضة، وهى قصيدة يرد بها الشاعر على قصيدة لخصم له فينقض معانيها عليه: يقلب فخر خصمه هجاء، وينسب الفخر الصحيح على نفسه، وتكون النقيضة عادة من بحر قصيدة الخصم وعلى رويها"[2]. فكانت هذه النقائض، وما تلاها بين شعراء العصر الأموى استمرارًا للهجاء القبلى عند شعراء العرب قبل الإسلام، والتى كان "كان يبعثها عادة خلاف بين قبيلتين أو أسرتين"[3]، فكانت النقائض موضع اهتمام المجتمع العربى "لما تؤديه من دور فى إثبات تفوق الشاعر على خصمه، والفوز بإعجاب المجتمع" [4]. فكان شعراء مشركى قريش ومن والاهم يهجون المسلمين، فيرد عليهم شعراء الأنصار ناقضين هجاءهم، فكان ذلك أول عهد حقيقى للنقائض فى الشعر العربى والتى ستزدهر فى العصر الأموى ازدهارًا تامًا[5] بعد أن شهد مقدماته الأولى فى صراعات شعراء القبائل، فكانت النقائض ذات أثر واضح فى تدوين الأحداث التاريخية لأنها تقوم على مهاجاة المتناقضين ومحاولة كل جانب إثبات وجهة نظره، وتقويض مبادئ وأهداف خصمه، هذا فضلاً عما حملته من مادة تاريخية ذات اتجاهين مختلفين. بيد أن ما يؤاخذ عليها أنها تقوم على الهجاء ومحاولة كل جانب النيل من صحة آراء الجانب الآخر مما يجعل الحقيقة ذات وجهين متضاربين، وقد استفاد هذا النمط الشعرى فائدة مثلى من المحفزات والصِّراعات إذ حاول كل طرف أن يقنع المجتمع بصحة رأيه وجدوى تعرضه لخصمه، وهو فى الوقت نفسه أنعش انتشارها وقدرتها على التأثير.

وثَّق رثاء شهداء المسلمين فى هذه الوقعة الأحداث التاريخية، وأسهم فى انتشار

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، ٣/ ٧٠٥ (نقض).

(٢) فروخ، عمر: تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول (دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨ م)، ٣٦١.

(٣) نفسه، ١/ ٣٦٣.

(٤) حمودي، جعفر صادق: النقائض في العصر الأموي "دراسة فنية"، أطروحة دكتواره مقدمة إلى قسم اللغة العربية -كلية الآداب- جامعة بغداد (ربيع الأول ١٤١٥هـ/ آب ١٩٩٤م)، ٤٣.

(٥) إبراهيم، طه أحمد: تاريخ النقد الأدبي عند العرب (دار الحكمة، بيروت، دون تاريخ)، ٢٦.

مبادئ المسلمين، ورسخ فكرة الاستشهاد التى كان المسلمون يقاتلون فيقتلون من أجل بلوغها للفوز بالجنة، كما فى قول كعب بن مالك:

نشجَت وهل لكَ من منشجِ ... وكنتَ متى تذكر تَلْجَجِ
تذكُّر قومٍ أتانى لهم ... أحاديثُ فى الزّمنِ الأعوجِ
فقلبُك من ذكرهم خافِقٌ ... من الشوقِ والحزنِ والمُنضجِ
وقتلاهم فى جنانِ النعيم ... كِرامُ المَداخلِ والمَخرجِ
بما صبروا تحت ظلِّ اللِّواءِ ... لواء الرسولِ بذى الأَضوَجِ
غداةَ أَجابَت بأسيافها ... جميعًا بنو الأوسِ والخَزرَجِ
وأشياعُ أحمد إذ شايعوا ... على الحقِّ ذى النورِ والمَنهَجِ
فما برحوا يَضربون الكُماةَ ... ويمضون فى القسطلِ المرهجِ[1]

تشير القصيدة على الصراع العقائدى بين الجانبين، وعلى إسناد قبيلتى الأوس والخزرج لمن هاجر مع النبى (صلى الله عليه وسلم)، وعلى طبيعة عقائد الطرفين فى النظرة إلى الحياة الآخرة.

كان فى رثاء عبدالله بن رواحة[2] (ت، ٨هـ/ ٦٢٩م) لحمزة بن عبدالمطلب (ت، ٣هـ/ ٦٢٤م) محاولة لاسترجاع أحداث معركة بدر، فأسهم فى توثيق حدثى بدر وأحد فى قصيدة واحدة مما يبرز الرؤية الشمولية للصراع، وتصميم الشعراء على الاستمرار فى الدفاع عن عقيدتهم بالرغم من تزايد التضحيات، ومما قاله:

بكَت عينى وحُقَّ لها بُكاها ... وما يُغنى البُكاءُ ولا العويلُ
على أسدِ الإلهِ غَداةَ قَالوا ... أَحمزةَ ذاكُمُ الرجلُ القتيلُ؟
أصيبَ المسلمون به جميعًا ... هناك، وقد أُصيب بهِ الرسُولُ

(١) ديوانه، ١٨٧؛ ابن هشام: السيرة، ٣/ ٧٠-٧١.

(٢) عبدالله بن رواحة بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري صحابي استشهد في موقعة مؤتة سنة (٨هـ/ ٦٢٩ م). ترجمته: ابن سلام: طبقات، ١/ ٢١٥؛ السيوطي: شرح، ١/ ٢٨٨.

أبـا يَعلـى لـك الأركـان هُـدَّت ... وأنـتَ الماجِـد البَـرُّ الوصـولُ
علـيكَ سـلامُ ربِّـك فـى جِـنانٍ ... مخالِطُهـا نَعـيمٌ لا يـزولُ
ألا يـا هاشِـمَ الأخـيارِ صَـبرًا ... فكُـلُّ فِعـالِكم حَـسَنٌ جميـلُ
رسـولُ الله مـصطَبِرٌ كـريمٌ ... بأمـرِ اللهِ يَـنطِقُ إذ يَقـولُ
ألا مَـن مُـبلغ عنّـى لُـؤيًّا ... فـبعدَ الـيوم دائلَـةٌ تَـدُولُ[1]

وكما يشير إلى مصير الشهيد حمزة بن عبدالمطلب، وهو الخلود فى جنات النعيم، يعيد للأذهان نتائج وقعة بدر وما تشكله من منعطف كبير فى الرسالة الإسلامية، وكيف كانت مقاتل مشركى قريش فخرًا للمسلمين. فيقول:

نَـسيتُم ضـربنا بقُلـيبِ بـدرٍ ... غَـداة أتـاكُمُ المـوتُ العجـيلُ
غـداةَ ثـوى أبـو جَهـل صَـريعًا ... عليـه الطَّـيرُ حائِمـةً تَجَـولُ
وعُتـبةُ وابـنُه خـرًّا جميـعًا ... وشـيبه عَـضَّهُ الـسَّيفُ الـصَّقيلُ
وَمتركَـنَا أُميَّةَ مجلعًّـبًا ... وفـى حَيـزومهِ لَـدنٌ نَبـيلُ
وهـامَ بنـى ربـيعة سـائِلوها ... ففـى أسـيافنا مـنها فُلـولُ[2]

الشاعر يُذَكِّر المشركين بأن انتصارهم فى أُحد لا يوازى هزيمتهم فى بدر ومقتل كبار فرسانهم من أمثال عتبة بن ربيعة (ت، ٢هـ/ ٦٢٣م) وابنه الوليد وأخيه شيبة، مما يؤكد على أهمية الشعر فى تدوين الحدث التاريخى، وعلى كون الشعر سلاحًا من أسلحة الدعوة الإسلامية، فكان أحد أدوات المعركة بين النبي[3] صلى الله عليه وسلم وخصومه المشركين.

كانت غزوة الخندق فى شوال سنة (٥هـ/ ٦٢٦م)[4] تحديًا مصيريًا للمسلمين،

---

(١) ابن رواحة، عبدالله (ت، ٨هـ/ ٦٢٩م): ديوانه، دراسة وتحقيق وليد قصاب (دار العلوم للطباعة والنشر، مطبعة المتوسط، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ١٤٢؛ ابن هشام: السيرة، ٣/ ٨٨.

(٢) ابن رواحة: ديوانه، ١٣٣.

(٣) الجبوري: الإسلام والشعر، ٤٣.

(٤) ابن هشام: السيرة، ٣/ ١٢٧؛ الطبري: تاريخ، ٢/ ٥٦٤.

وتعبيرًا عن تعبئة عسكرية متقدمة فى حصار المدن، فكان الشعر وثيقة لهذا الحدث الجديد فى حياة العرب المسلمين بما يكشف عن قدراتهم القتالية فى مجابهة التحديات التى تحيط بهم، فهذا حسان بن ثابت يقول عن هذه الغزوة:

عــرفت ديــار زيــنب بالكثــيبِ ... كخَـطِّ الوَحـى فـى الـرِّقِّ القـشيبِ
تعاورهــا الــرِّياح وكُــلُّ جَــونٍ ... مــن الوسمــى منهَمِــر سَــكُوبِ
فأمــسى رسمُهــا خَلقًــا وأَمــست ... يَــبابًا بعــدَ ســاكِنِها الحبــيبِ
فَــدَعْ عــنكَ التَّذكُــرَ كُــلَّ يــومٍ ... وَرُدَّ حــرارَةَ الــصَّدرِ الكئــيبِ
وخَبِّــرِ بالــذى لا عَــيبَ فــيه ... بــصدقٍ غــيرَ أخــبرِ الكــذوبِ
بمــا صَــنعَ المليــكُ غــداة بَــدرٍ ... لــنا فــى المــشركينَ مــن النَّــصيبِ
غــداةَ كــأنَّ جَمعَهُــمُ حِــراءٌ ... بَــدَت أركانُــه جــنحَ الغُــروبِ
فلاقيــناهُمُ مــنا بجَمــعٍ ... كأُسْــدِ الغــابِ مــن مُــردٍ وشِــيبِ
أمــامَ محمَّــدٍ قَــد آزورُو ... علــى الأعــداءِ فــى وهــجِ الحــروبِ
بأيــديهِمُ صــوارِمُ مُــرهفاتٌ ... وكُــلُّ مُجــرَّبٍ حاظــى الكعُــوبِ
بــنُو الأوسِ الغطاريــف آزرتهــا ... بنو النَّجارِ فى الدينِ الصَّليبِ[1]

وفى الجانب الآخر عند مشركى قريش كان شاعرهم عبدالله بن الزبعرى يشير إلى وقعة الخندق، واصفًا مسيرة معاشرهم بأجمعهم من أنصاب مكة إلى يثرب، حينما يصف خيلهم، وكيف وردوا المدينة وقد ارتدوا أسلحتهم للموت قاصدين النبى، صلى الله عليه وسلم، وكيف كانوا يدخلونها لولا الخنادق التى اضطرتهم إلى الرحيل، ولولا ذلك لتركوهم للطيور والذئاب، فهو يقول:

واذكُــرْ بَــلاءَ معاشِــرٍ واشــكُرهمُ ... ســاروا بــأجمعهم مــن الأنــصابِ
أنــصابِ مَكَّــةَ عامــدين يثــربَ ... فــى ذى غَــياطِلَ جَحفَــل جــبجاب

(١) ديوانه، ٤٣-١٣٥.

يَـدعُ الحُـزونَ مـناهِجًا معلـومَة ... فـى كـلِّ نَـشزٍ ظاهـرٍ وشِـعابِ
فـيه الجـياد شَـوازبٌ مَجـنوبَةٌ ... قُـبُّ البُطُونِ لَواحِـقُ الأقـرابِ
مِـن كُـلِّ سَـلهَبَةٍ وأجـردَ سَـلْهبٍ ... كالـسَّيلِ يادَرغفلـةَ الـرُّقَّابِ
قَـرمانِ كالـبدرينِ أصـبح فـيهما ... فـيهِ وصـخر قائـد الأحـزاب
جـيشُ غُيينـةُ قاصِـد بِلـوائِهِ ... غـيثُ الفقـيرِ ومعقِـلُ الهُـرَّابِ
حتـى إذا وَردوا المدِيـنةَ وارتـدوا ... للمـوتِ كُـلَّ مُجـرَّبٍ قُـضَّاب
شَـهرًا وعَـشرًا قاهـرين مُحمَّـدًا ... وصِحابُهُ فـى الحَربِ خيرُ صِحَاب
نـادوا بـرحلتِهم صـبيحةَ قُلـتمُ ... كِـدنا نكـونُ بهـا مَـعَ الخُـبَّابِ
لـولا الخـنادقُ غـادروا مـن جَمعِهـم ... قَتلَـى لطـيرٍ شُـغَّبٍ وذئـابِ[1]

ولأن الشعر وسيلة إعلامية مهمة، فإن أحد شعراء النبى صلى الله عليه وسلم، كعب بن مالك الأنصارى نقض هذه القصيدة على قافية القصيدة السابقة ورويها.

وقد عبرت هذه النقائض فى هذه المرحلة عن بدء فكرة التناظر والحوار بين عقيدتين متعارضتين، كل منهما تحمل فكرًاودينًا وقيمًا تختلف عن الأخرى، فهذا ما يقوله كعب بن مالك لسان حال المسلمين وهو يرد على شاعر المشركين ابن الزبعرى:

أبقـى لـنا حَـدَثُ الحـروبِ بقـيَّةً ... مِـن خَـبرِ نحلـةِ ربِّـنا الـوهَّابِ
بيـضاءَ مـشرفة الـذُّرا ومعاطِـنًا ... حُـمَّ الجُـذوعِ غزيـرة الأحـلابِ
كاللُّـوب يـبذل جمُّهـا وحفـيلُها ... للجـارِ وابـنِ العـمِّ والمُنـتابِ
ونـزائِعًا مـثل الـسِّراج نمـا بهـا ... علَـف الـشعير وجِـزَّةِ المقـضابِ
عـرى الـشَّوى مـنها وأردفَ نحـضها ... جَـردُ المُـتونِ وسـائرِ الآدابِ
قُـودًا تُـراح إلى الـصِّياحِ إذا غـدت ... فعـل الـضِّراءِ تُـراحُ للكِلَّـابِ

(١) شعره، ٢٩-٣٠؛ ابن هشام: السيرة، ٣/ ١٥٨-١٥٩.

حوش الوحوشِ مطارة عند الوغى ... عُـيُس اللقـاءِ مبيـنَة الإنجـابِ
عُلفـت علـى دِعَـةٍ فـصارت يُـدَّنًا ... دُخـسَ البـضيع خفـيفةَ الأقـصابِ
يغـدوَن بالـزَّحفِ المُـضاعفِ شَـكُّه ... وبمترصـاتٍ فـى الـثفافِ صِـيابِ[1]

يرد الشاعر كعب بن مالك على خصمه المشرك فينقض أفكاره مستخدمًا القافية ذاتها، مستفيدًا من ألفاظ القرآن ومعانيه، فكان الشعر صوتًا لإيصال أفكار الدين الجديد بين القبائل التى لم تكن تسمع عن الإسلام شيئًا إلا عن طريق ما يصل إليها من الشعر[2]. فكان شعراء الإسلام من المهاجرين والأنصار أكثر تعبيرًا عن جوهر الحدث من خلال النظرة المتروية والفاحصة لعملية الصراع بين الإيمان والشرك، عبر رؤية مترعة بالروح الإسلامية، من دون التخلى عن نزعة الافتخار بفروسية جند الإسلام وصفاتهم الإنسانية؛ وبهذا أسهم الشعر فى توثيق جوانب من الحياة الواقعية بما يكشف عن طبيعة حياتهم ونظرتهم للموت وقدرتهم على مناجزة عدوهم، لذا كان للشاعر وشعره أثرهما فى الحدث من خلال المشاركة الفعلية فى المعركة، ففى وقعة مؤتة[3] التى حدثت سنة (٨هـ/ ٦٢٩م)[4] قال ابن رواحة:

جلبـنا الخـيلَ مـن أجـأ وفَـرعٍ ... تُغَـرُّ مِـن الحـشيشِ لهـا الغكـومُ
خـدوناها مِـنَ الـصَّوَّانِ سِـبتًا ... أزَلَّ كـأنَّ صـفحتُه أديـمُ
أقامَـت ليلـتين علـى مُعـانٍ ... فأُعقِـبَ بعـد فترتِهـا جُمُـومُ
فَـرُحنا والجـيادُ مـسوَّمَاتٌ ... تـنفِّسُ فـى مَناخِـرِها الـسَّمُومُ
فـلا وأبـى مَـآب لنأتِيـنَها ... وإنْ كانَـتْ بهـا عَـرَبُ ورُومُ[5]

وحين أخذ ابن رواحة الراية[6]، وقاد جيش مؤتة، كان رجزه فى أثناء القتال

(١) ديوانه، ١٧٩-١٨٠؛ ابن هشام: السيرة، ٣/ ١٦٠.
(٢) العاني، سامي مكي: الإسلام والشعر (عالم المعرفة، الكويت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٦٧.
(٣) مُؤتة، بالهمزة، من مشارف الشام كما في ياقوت: معجم البلدان، ٥/ ٢١٩-٢٢٠ (مؤتة).
(٤) ابن خياط: تاريخ، ١/ ٤٩؛ الطبري: تاريخ، ٣/ ٣٦.
(٥) ديوانه، ١٤٩؛ ابن هشام: السيرة، ٤/ ٩-١٠.
(٦) ينظر الطبري: تاريخ، ٣/ ٣٦.

جزءًا من تفاصيل الحدث التاريخى، وتعبيرًا عن الإصرار على مبادئ العقيدة الإسلامية، وإيثار الشهادة على الحياة، فكان يقول:

أقسمتُ يا نفسُ التنزلنَّهْ
طائعةً أو لتُكرَهِنَهْ
إن أجلبَ الناسُ وشدوا الرَّنَّهْ
مالى أراكِ تكرهينَ الجَنَّهْ
قد طَالَما قد كُنتِ مطمئنَّهْ
هَل أنتِ إلَّا نُطفةٌ فى شَنَّهْ
جعفرُ ما أطيَبَ رِيحَ الجنَّهْ[1]

كان لحسن العاقبة عند المسلمين، وإحساسهم بأن ثواب الشهداء هو الجنة حافزًا قويًا لاندفاع ابن رواحة وقتاله المستميت، وهو يخاطب من سبقه من شهداء معركة مؤتة، فكان يحبذ لنفسه ريح الجنة، فقاتل حتى لقى ربه شهيدًا، فلما وصلت الأخبار إلى المدينة رثى حسان بن ثابت شهداء مؤتة بقوله:

عينُ جودى بدمعِك المَنزورِ ... واذكرى فى الرَّخاءِ أهلَ القبورِ
واذكرى مؤتةً وما كانَ فيها ... يومَ راحوا فى واقعةِ التغويرِ
حينَ ولَّوا وغادروا ثم زَيدًا ... نِعمَ مأوى الضَّرِيكَ والمأسورِ
حِبُّ خيرَ الأنامِ طُرًّا جميعًا ... سَيِّد الناس حُبُّه فى الصُّدورِ
ذاكُمُ أحمَد الذى لا سِواهُ ... ذاكَ حُزنى لَهُ معًا وسروري
ثم جودى للخزرجى بدمعٍ ... سَيِّدًا كانَ ثم غيرَ نَزورِ
قَد أتانا من قتلهم ما كفانا ... فبحزنٍ نَبيتُ غيَر سُرورِ[2]

يرثى الشاعر شهداء مؤتة، فيشير إلى استشهاد زيد بن حارثة (ت، ٨هـ/

(١) ديوانه، ١٥٣.
(٢) ديوانه، ٢٢١-٢٢٢؛ ابن هشام: السيرة، ٤/ ٢٠-٢١.

٦٢٩م)، كما أشار ابن رواحة فى رجزه إلى استشهاد جعفر بن أبى طالب (ت، ٨هـ/ ٦٢٩م)، فكان الشعر وثيقة تكشف عن التاريخ الحقيقى لوفيات من شارك فى الغزوات والمعارك.

وعندما انتقل النبى صلى الله عليه وسلم، إلى الرفيق الأعلى سنة (١١هـ/ ٦٣٢م)[١] استنهض حسان بن ثابت قواه الشعرية، وهو الشاعر الذى جعل شعره صوتًا مدويًا فى سبيل الإسلام، فرثى الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله:

ألـيتُ حَلفَـة بـرٍّ غـير ذى دَخـلٍ ... مِنّـى آلـيَةَ بَـرٍّ غـيرِ إفـنادِ
بـاللهِ مـا حَمَلـت أنثـى ولا وَضَـعتْ ... مِـثلَ النبـى رسـول الـرَّحمةِ الهـادِى
ولا مَـشى فوقَ ظهرِ الأرضِ من أحدٍ ... أولى بذَّمـــهِ جـــارٍ أو بمـــيعادِ
مَـن الـذى كـانَ نـورا يُستـضاءُ بـهِ ... مُـبارك الأَمـرِ ذا حـزم وإرشـادِ
مُـصدِقًا للنبيـيِّن الأُلى سَـلفوا ... وأَبـذَلَ الـناسِ للمعـروفِ للجـادي
خـيرَ الـبريّة إنّـى كـنتُ فـى نَهـرٍ ... جارٍ فأصبحت مثلَ المُفردِ الصادِي
أمـسى نـساؤكَ عُطّلـنَ البيوت فمـا ... يَـضربنَ فـوقَ عُـرى سِـترٍ بأوتـادِ
مِـثل الـرَّواهبِ يلبسنَ المُسوحَ وقَـد ... أيقّـن بالبُؤسِ بعَـد النِّعمةِ البادى[٢]

يبدو أثر وقع الحدث النفسى واضحًا على الشاعر، لذا أطرى فضائل المرثى فدمج بين أسلوب الرثاء فى إيلاء مظاهر الحزن اهتمامه وفى بيان مناقب شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) وميزة رسالته فى توكيد رسالات الأنبياء، فوصفه بأنه خير البرية وأبذل الناس بالمعروف، بينما وصفه كعب بن مالك فى رثائه له بأنه خير من حملت ناقة، وأتقى البرية، وخير الأنام حين قال:

يـا عَـيُن فابكـى بدمـع ذرى ... لخـيرِ الـبريةِ والمـصطفى
وبكّـى الرسـول وحُـقَّ الـبكاء ... عليـه لـدى الحـربِ عـند اللقـا

(١) ابن خياط: تاريخ، ١/ ٥٨؛ الطبري: تاريخ، ٣/ ١٩٩.
(٢) ديوانه، ٢٠٧-٢٠٨؛ ابن هشام: السيرة، ٤/ ٢٣٦.

على حيرِ مَن حَملَت ناقةٌ ... وأتقى البريةَ عند التُّقى
على سَيد ماجدٍ جحفَلٍ ... وخيرِ الأنام وخير اللُهَا
لهُ حسَبٌ فوقَ كلِّ الأنا ... مِ من هاشم ذلِكَ المُرتجى
نَخصُّ بما كانَ من فضلهِ ... وكان سِراجًا لنا في الدُّجا
وكان بشيرًا لنا منذرًا ... ونورًا لنا ضوءه قد أضا
فأنقذنا الله في نورِه ... وَنَجَّى برحمتِه مَن لَظا[1]

ينطلق الشاعر فى رثائه للنبى)صلى الله عليه وسلم) من المفاهيم الإسلامية التى أشاعتها لغة القرآن الكريم بما يوصل بين جسامة الحدث ووقع القصيدة لأنهما ينبثقان من أرض إسلامية واحدة رسختها قوة تأثير الرسالة، فكان الرثاء يجمع بين فكرة الاصطفاء فى النبوة ونبل النسب، مما يعنى أن الشاعر زاوج بين الافتخار بالنسب عند شعراء قبل الإسلام والاعتزاز الكبير بالدين الجديد، وبشخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) التى رأت فى الشعر خير عون ضد الأعداء.

عصر الخلفاء الراشدين

ثبَّت الرسول (صلى الله عليه وسلم) أركان الدولة العربية الإسلامية فى شبه جزيرة العرب بعد أن وضع أصولها وبنى قواعدها وأوضح معالمها، فاتخذ من يثرب عاصمة لدولته التى سميت بمدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ومنها انتشر الإسلام وتوسعت دولته بعد أن حمل أعباءها خلفاؤه من بعده، فحرروا الأمصار وفتحوا البلدان وساهموا فى إعلاء دين الإسلام فرادى وجماعات فى الحرب والسلم.

كان للخفاء الراشدين مواقف مع الشعر، فقد روى شعر لأبى بكر وعمر وعثمان وعلي[2] (رضى الله عنهم)، كما كان عمر بن الخطاب يقول: "الشعر علم قوم

(١) ديوانه، ١٧٣.
(٢) ابن رشيق: العمدة، ١/ ٣٢-٣٤.

لم يكن لهم علم أعلم منه"، وكان على بن أبى طالب يقول: "الشعر ميزان القول، ورواه بعضهم: الشعر ميزان القوم[1]. مما يعنى أن الشعر شكل جزءًا من ثقافة مرحلة عاشوها وظلوا يرون فيه علمًا ومؤثرًا على حياة العرب بعد الإسلام. وكانت لهم مواقف مع الشعراء حتى أن حسان بن ثابت خاطب عمر مرة عندما نهره عن قول الشعر بقوله: "دعنى عنك يا عمر، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك فما يغير على ذلك، فقال عمر: صدقت"[2]. ولعل ذلك هو الذى دفع بعمر إلى الكتابة إلى أبى موسى الأشعري: "مر من قبلك بتعلم الشعر؛ فإنه يدل على معالى الأخلاق، وصواب الرأى، ومعرفة الأنساب"[3].

وعندما قدم الزبرقان بن بدر[4] إلى أبى بكر الصديق (١١-١٣هـ/ ٦٣١-٦٣٤م) فى خلافته، وهو يحمل معه أموال الصدقات فى سنة ١١ هـ/ ٦٣٢م)[5] قال:

وفيتُ بأذوادِ الرسولِ وقَد أَبت ... سُعاة فَلم يَرُدْ بعيرًا مجيرُها

مَعًا ومنعناها من النَّاسِ كلِّهُم ... تَراها الأعادى حَولَنا ما تضيُرها

وأَديتُها من أن تُضامَ بذمتِّى ... مَحَانيق لَم تُدرَس رُكوبًا ظُهورُها

أردتُ بها التقوى ومَجد حديثها ... إذا عُصبةٌ سامى قَبيلى فَخُورُها

وإنِّى لَمِنْ قَومٍ إذا عُدَّ سَعيُهم ... أَبى المخزيات حَيُّها وقَبيرُها

---

(١) نفسه، ١/ ٢٧-٢٨.

(٢) نفسه، ١/ ٢٨.

(٣) نفسه.

(٤) هو الحصين بن بدر التميمي، شاعر مخضرم محسن. ينظر ترجمته: الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى (ت، ٣٧٠هـ/ ٩٨١م): المؤتلف والمختلف، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م)، ١٨٧؛ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت، ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): الإصابة في تمييز الصحابة، الجزء الأول (مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ)، ٥٤٣.

(٥) الطبري: تاريخ، ٣/ ٣٠٥.

صِـغارهُمُ لم يَطـيعوا وكـبارُهُم أصُـيبَتْ مـناياها عِفافًـا صُـدُورها[1]

ينطلق الشاعر من خلال امتزاج الاستجابة الذاتية بالحدث، للتعبير عن موقفه كإنسان شعر بتواصل عهد الخليفة الأول بعصر الرسالة الإسلامية، مشيرًا إلى أنه جاء بحق الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذى شرعه.

وفى سنة (١٢هـ/ ٦٣٣م)[2] هزم القعقاع[3] الفرس فى وقعة حصيد[4] فقال:

ألم يَـنه عـنا حـى أرس أنـنا منعـناهم مـن ربعهـم بالـصَّوارِمِ
وإنـا أُنـاسٌ قـد نعـوَّدُ خيلـنا لقـاءَ الأعـادى بالحتوفِ الفـواطمِ
ورُوز قتلـنا حـيث أرجـف خَـدَّه وكـلُّ رئـيسٍ زارنـا بالعظـائمِ
تـركنا حَـصيدًا لا أنـيس يجـره وقـد شـفيت أربابـه بالأعـاجِمِ
وأنّـى لراجـى أن تلاقـى جمـوعُهُم غُـديّا المنكـرات الـصَّوارمِ
ألا أبلِغـا أسمـاءَ أنَّ جـيلها قـضى وطـرًا مـن روزبّـى الأعـاجِمِ
غَداةَ صبحنا فى حَصيدٍ جُموعهُم بهـنديّةَ تفـرى فِـراخ الجَمـاجِمِ
ورُوزَ أصـابَت بالمـنايا فأوجَعـت سيوفُ بنى عمروٍ بإحدى العظائِمِ[5]

واكبت هذه القصيدة معارك تحرير العراق، والتى أصبحت إحدى الوثائق التاريخية التى "لها قيمتها فى تأكيد الوقائع وسلامة الأحداث وقدرة الشعر على تصوير التاريخ. وتثبيت أحداثه وتصويره لحياة المحررين ومشاعرهم"[6] الإنسانية

(١) أبو عبيدة: النقائض، ٢/ ٦١٧؛ الطبري: تاريخ، ٣/ ٣٠٥.
(٢) الطبري: تاريخ، ٣/ ٣٨٠.
(٣) القعقاع بن عمرو التيمي (ت، نحو ٤٠هـ/ ٦٦٠م) ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (ت، ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢م): أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبدالوهاب فايد الجزء الرابع (دار الشعب، القاهرة، دون تاريخ)، ٤٠٩.
(٤) حصيد: موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة. ياقوت: معجم البلدان، ٢/ ٢٦٦ (حصيد).
(٥) القعقاع بن عمرو التميمي (ت، نحو ٤٠هـ/ ٦٦٠م): شعره ضمن كتاب: شعراء إسلاميون، تحقيق نوري حمودي القيسي (منشورات مكتبة النهضة العربية – عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م)، ٤٩.
(٦) القيسي: الشعر والتاريخ، ٥٨.

والقتالية، فكانت واضحة المعانى وثقت مقتل شخصيتين من شخصيات رجال العدو وهما "روزبة و "روز مهر"[1].

حين توفى الخليفة أبو بكر الصديق سنة (١٣هـ/ ٦٣٤م) رثاه حسان بن ثابت فقال:

إذا تذكرتُ شجوً امن أخى ثِقَةٍ ... فاذكر أخاكَ أبا بكر بما فَعلا

خيرَ البَريَّةِ أتقاها وأعدلَها ... بعد النبى وأوفاها بما حَمَلا

والثانى الصَّادق المحمود مشهدُه ... وأوَّلِ الناسِ منهم صَدَّق الرُّسلا

عاشَ حميدًا لأمرِ اللهِ مُتَّبِعًا ... يهدْى صاحبهِ الماضى وما انتقلا[2]

يبدو على هذه الأبيات أنها متقاربة فى الدلالة والمعنى مع ما جاء فى رثاء حسان للنبى (صلى الله عليه وسلم)، مما يؤكد استمرارية الحدث التاريخى وتواصله، وبأن ثمة ترابطًا بين صاحب الرسالة الأول وبين من جاء بعده حين أخذ على عاتقه مسؤولية المواصلة فى تنفيذ مبادئ تلك الرسالة على وفق المعيار الذى جاءت به وأرادته.

كان الخلفية الثانى عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هت/ ٦٣٤-٦٤٣م) عازمًا على تثبيت دعائم الدولة وتعبئة الجيوش لتحرير الأقاليم المجاورة لدولته، فابتدأ مع إمبراطورية الفرس بمعارك متواصلة كانت محدودة فى بدايتها ثم صارت مشهودة فى وقائعها بعد ذلك. ففى معركة القادسية التى حدثت سنة (١٤هـ/ ٦٣٥م)[3] أسهم الشعر فى توثيق الأحداث، وفى بيان طبيعة الالتحام القتالى العنيف الذى التحمه المسلمون مع أعدائهم الفرس، والذى آل إلى تقويض هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ودحرها وتحرير العراق وفتح

(١) الطبري: تاريخ، ٣/ ٣٨٠.

(٢) ديوانه، ٢١١-٢١٢.

(٣) الطبري: تاريخ، ٣/ ٤٨٠.

خراسان وغيرها من الأقاليم المنضوية تحتها، وفى هذا الشأن يقول[1] طليحة بن خويلد:

طرقت سليمى أرحل الركبِ ... إنى اهتديتُ بسبسب سهبِ
إنى كفلتُ سلام بعدكم ... بالغارة الشّعواء والحربِ
لو كنتَ يومَ القادسيةِ إذ ... نازلتم بمهندٍ عَضَبِ
أبصرتَ شداتى ومنصرفي ... وإقامتى للطّعنِ والضَّربِ[2]

فهذا طليحة بن خويلد يوثق الأحداث عندما يوضح فى شعره ملامح المعركة ويرسم صورة للترابط بين مكان المعركة وما يجرى فيها من فعاليات وأدوات قتالية.

وعن تحرير بيت المقدس فى سنة (١٥هـ/ ٦٣٦م)[3] يقول زياد بن حنظلة[4]:

تَذكّرتُ حربَ الرُّومِ لما تَطاوَلَتْ ... وإذ نَحنُ فى عامٍ كثيرٍ نزائِلُهْ
وإذ نَحنُ فى أرضِ الحجازِ وَبيننا ... مَسيرةُ شَهرٍ بينهُنَّ بَلابِلَهْ
وإذ أرطبونُ الروم يَحمِى بِلادَهُ ... يُحاولَهُ قَرمٌ هُناكَ يُساجِلَهْ
فلما رأى الفاروق أزمان فَتحِها ... سما بجُنُودِ الله كَيما يُصاوِلَه
فلما أحسوه وخافوا صِوالهُ ... أتَوهُ قولوا أنتَ مِمَّنْ نُواصِلَهْ
وألقَت إليه الشأم أفلاذَ بَطنِها ... وعَيشا خَصِيبًا ما تُعدُّ مآكِلَهْ
أَباحَ لنا ما بَينَ شرقٍ ومغربٍ ... مواريث أعقابٍ بنتها قَرامِلَهْ

---

(١) هو طليحة بن خويلد الأسدي شهد معركة القادسية. ترجمته: ابن عبدالبر، يوسف بن عبدالله بن محمد النمري القرطبي (ت، ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م): الاستيعاب في أسماء الأصحاب بهامش كتاب الإصابة، الجزء الثاني (مط السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ)، ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت، ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): فتوح البلدان، تعليق ومراجعة رضوان محمد رضوان (المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٩م)، ٢٦١.

(٣) الطبري: تاريخ، ٣/ ٦١٢.

(٤) زياد بن حنظلة التميمي. ترجمته: ابن حجر: الإصابة، ١/ ٥٥٧.

وكَـم مُـثقَلٍ لَـمَ يَـضطَلِع باحـتمالِهِ تحمَّـلَ عِبـئًا حـين شـالَتْ شَـوائِلَه[1]

يشير هذا الشعر إلى تحرير بيت المقدس، وبلاد الشام، ومسيرة الخليفة عمر إليها، كما يشير إلى المعركة بين المسلمين مع (أرطبون) الروم، فأصبح الشعر وثيقة تسهم فى حفظ الأحداث إلى جانب مصادرها التاريخية.

كانت معارك التحرير تتواصل بقوة وتصميم ففى وقعة جلولاء[2] التى حدثت سنة (١٦هـ/ ٦٣٧م)[3] فقال هاشم بن عتبة[4] الذى زحف عليها من المدائن فى اثنى عشر ألفًا:

يَـــومُ جلـــولاءَ ويـــومُ رُســـتَمْ ويـــوُم زحـــفِ الكـــوفَةِ المُقـــدَّمْ
ويَـــوُم عَـــرضِ النهـــرِ المحـــرَّمْ مِـــن بـــينَ أيَّـــامٍ خَلَـــونَ صُـــرَّمْ
شَـــبَّينَ أصـــداغى فَهُـــنَّ هُـــرَّمْ مِـــثلُ ثُغـــامِ الـــبَلَدِ المُحـــرَّمْ[5]

يحفظ هذا الشعر مكان الموقعة وقائد جيش الفرس، فيتابع زحف الجيوش وهى تعبر النهر، وما لاقاه الجيش الإسلامى الزاحف فى مسيرته خلال الأيام التى سبقت التماس بين الجيشين، وقد شهد القعقاع هذه الوقعة فقال:

ونَحـنُ قتلـنا فـى جلـولا أكابـرًا ومَهـران إذْ عَـزَّتْ علـيه المـذاهبُ

---

(١) الطبري: تاريخ، ٣/ ٦١٢-٦١٣.

(٢) جلولاء: طسوج في طريق خراسان قرب خانقين، وهو نهر عظيم يمتد إلى بعقوبا. ياقوت: معجم البلدان، ٢/ ١٥٦ (جلولاء).

(٣) ابن خياط: تاريخ، ١/ ١٠٨ وفيه حدثت سنة ١٧هـ؛ الطبري: تاريخ، ٤/ ٢٥.

(٤) هاشم بن عتبة بن ابي وقاص المعروف بالمرقال، قتل مع علي بن أبي طالب في صفين سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧م. ترجمته: ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد البستي التميمي (ت، ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م): الثقات، إشراف شرف الدين أحمد، الجزء الثالث (مطبعة مجالس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدين – الهند، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ٤٣٧؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م): العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد سعيد بسيوني زغلول، الجزء الأول (دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، ٢٨.

(٥) الطبري: تاريخ، ٤/ ٣٣-٣٤.

ويــوم جلــولاء الوقــيعة أفنــيت بــنو فــارس لمـا حـوتَها الكـتائِبُ[1]

لقد أشرت أبيات هاشم بن عتبة والقعقاع أسماء مدن وأشخاص ترتبط بوقعة جلولاء من أمثال (جلولاء، الكوفة، رستم، مهران،..) وفى ذلك إضافة مهمة للمعرفة التاريخية حُفِظَت لنا من خلال الشعر.

وعن طعن عمر بن الخطاب واستشهاده بعد ذلك فى سنة (٢٣هـ/ ٦٤٣م)[2] يقول حسان بن ثابت:

فَجَّعــــــنا فَـــــيرُوز لا دَر دُرُّهُ بأبــيضَ يــتلوُ المُحكَمــاتِ مُنــيبِ

رَؤوفٍ على الأدنى غليظٍ على العِدا أخــى ثِقــةٍ فــى النائــباتِ نَجـيبِ

متى مـا يَقـلُ لا يكـذِبُ القـولَ فعلُـهُ سَــريع إلى الخــيراتِ غــيرَ قطــوبِ

مُطــيعٍ لأمــرِ الله بالحــقِّ عــارفٍ بعــيدُ الأنَــامِ عــندَهُ كقَــريبِ[3]

يحدد الشاعر فى رثائهِ اسم قاتل الخليفة، ويحكى صفات هذا الخليفة وهي: أنه رؤوف على الأدنى، غليظ على الأعداء، أخو ثقة فى النائبات، لا يكذب القول، سريع على الخيرات غير قطوب، مطيع لأمر الله، عارف بالحق، يتساوى عنده البعيد من الناس كالقريب. هذا فضلاً عن تلاوته لكتاب الله، ورأفته، ونجابته...، فاستطاع توثيق خصال الخليفة شرعًا،وهذا شيء مهم يمكن أن يعتمده المؤرخ فى التدوين التاريخى.

وعندما فتحت طبرستان[4] سنة (٣٠هـ/ ٦٥م)[5] فى خلافة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ/ ٦٤٣-٦٥٥م) قال كعب بن جعيل[6] (ت، ٥٥هـ/ ٦٧٥م) مادحًا قائد الجيش الذى فتحها:

---

(١) شعره، ضمن كتاب: شعراء إسلاميون، ٢٩.

(٢) ابن خياط، تاريخ، ١/ ١٢٦؛ الطبري: تاريخ، ٤/ ١٩٣.

(٣) ديوانه، ٢١٢.

(٤) إقليم في بلاد (مازندران). كما في ياقوت: معجم البلدان، ٤م١٣ (طبرستان).

(٥) ابن خياط: تاريخ، ١/ ١٤٢-١٤١؛ الطبري: تاريخ، ٤م٢٧٠.

(٦) هو كعب بن جُعيل بن قمير، أحد بني تغلب (ت، ٥٥هـ/ ٦٧٥م). ترجمته: الجاحظ، البيان، ١/ ٦٣؛ ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ١/ ٥٤٣.

فَـنِعِمَ الفَتـى إذْ جـالَ جـيلانُ دونَـه ... وإذِ هَـبطوا مـن دسـتَبى ثـم أَبهـرَا
تَعَلَّـم سَـعيدَ الخـيرِ إن مطيتـى ... إذا هَـبطَت أشـفَقتُ مِـن أن تُعقَّـرا
كأنَّـك يـومَ الـشِّعب لَـيثُ خفـيَّةٍ ... تَحـرَّدَ مـن لـيثِ العَـرين وأَصـحرا
تَسوسُ الَّذى ما ساسَ قبلك واحِدٌ ... ثمـانينَ ألفًـا دارعـينَ وحُـسَّرا[1]

يبين الشاعر تعداد الجيش، وهم ثمانون ألفًا، وطبيعة استعدادهم للقتال، فهم دارعون وحسرا، أى بعضهم يرتدى الدروع وآخرون حسرا، أى غير دارعين، ولعلهم فعلوا ذلك استماتة فى قتال عدوهم.

أدت الفتنة التى ظهرت أيام الخليفة عثمان بن عفان إلى استشهاده فى سنة (٣٥ هـ/ ٦٥٥م)[2] فرثاه حسان بن ثابت بقوله:

إن تُمـسِ دارَ بنـى عـثمان خاويـةً ... بـابٌ صـريعٌ وبـابٌ مُحْـرَقٌ خَـرِبُ
فقـد يُـصادُ فُ باغـى الخـير حاجَـتهُ ... فـيها ويـأوى إليها العُـرفُ والحَـسَبُ
يـا أيُّهـا الـنّاس أبـدوا ذاتَ أنفسكم ... لا يـستوى الـصِّدقُ عند اللهِ والكَذِبُ
ألا تنيـــبوا لأمـــرِ اللهِ تَعترفـــوا ... كتائـبًا عُـصبًا مـن خَلفِهـا عُـصُبُ
فـيهم حَبيب شهابِ الحربِ يقدمهُم ... مستلئِمًا قَد بَدا فى وجههِ الغَضَبُ[3]

يوثق الشاعر ما حدث فى الفتنة من فتح باب دار الخليفة وحرق باب آخر، ويستنكر ذلك ويرى فيه تجاوزًا على إمام المسلمين، فيحاول الكشف عن جوانب الحدث الغامضة من خلال هذا الشعر.

ونتيجة لما حصل من فرقة بين المسلمين كان عهد الخليفة على بن أبى طالب (٣٥ -٤٠هـ/ ٦٥٥-٦٦٠م) مضطربًا بالصراعات والأحداث الجسيمة، فقد حذر أبو

(١) الطبري: تاريخ، ٤/ ٢٧٠-٢٧١.
(٢) ابن خياط: تاريخ، ١/ ١٥٤؛ الطبري: تاريخ، ٤/ ٤١٥.
(٣) ديوانه، ٢١٢-٢١٣.

الأسود الدؤلي[1] (ت، ٦٧هـ/ ٨٦٨م)من الفتنة فى وقعة الجمل سنة (٣٦هـ/ ٦٥٦م)[2] فقال:

أتينا الزبيرَ فدانى الكلامَ ... وطَلحةَ كالنجمِ أو أبعدُ
وأحسنَ قولَيهما فادِحُ ... يضيقُ به الخَطبُ مستنكَدُ
وَقد أوعدونا بجهدِ الوعيدِ ... فأهوَن علينا بما أوعدوا
فقلنا: ركضتم ولم تَرمِلوا ... وأصدرتم قبلَ أن تَوردوا
فإن تلقحوا الحربَ بينَ الرِّجالِ ... فملقحُها جدُه الأنكدُ
وإنَّ عَليًّا لكم مُصحِرٌ ... ألا إنَّهُ الأسدُ الأسوَدُ
أما إنَّه ثالِثُ العابدين ... ن بمكَّةَ والله لا يعبدُ
فزّخوا الخناقَ ولا تعجلوا ... فإنَّ غَدًا لكُم موعِدُ[3]

الملاحظ على شعر أبى الأسود أن معانيه جاهلية لها صلة بالبادية، فقد شبه الحربَ بالناقة، وعلى بن أبى طالب (رضى الله عنه) بالأسد، واستفاد من مفردات الصحراء التى لها علاقة بالماء وبالورد والتصدير، وهذا ما جعل الكثير من مفردات وصور الشعر العربى قبل الإسلام تنهض من جديد، لتعود معها أفكار العصبية القبلية مشفوعة بالصراعات نتيجة شيوع الفرقة. فهذا أحد المقاتلين فى وقعة الجمل يقلب سيفة ويرتجز:

نحنُ بنى ضَبّة أصحابُ الجَملْ ... نُنازِلُ الموتَ إذا الموتَ نَزَلْ

---

(١) هو ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي، أحد الفقهاء والمحدثين وواضع علم النحو (ت، ٦٧هـ/ ٦٨٦ م). ترجمته: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ٢/ ٦١٥؛ البغدادي، عبدالقادر بن عمر (ت، ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٣م): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الجزء الأول (دار الكتاب العربي والنشر، القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ٢٨١.

(٢) ابن خياط: تاريخ، ١/ ١٦٠؛ الطبري: تاريخ، ٤/ ٥٠٦.

(٣) أبو الأسود الدؤلي، ظالم بن عمرو بن سفيان (ت، ٦٧هـ/ ٦٨٦م): ديوانه، تحقيق محمد حسن آل ياسين (مكتبة النهضة، مطبعة المعارف، بغداد، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٤م)، ١٠٣-١٠٤.

والموتُ أشهى عندنا مِن العَسَلْ نَنعَى أينَ عَفّانَ بأطرافِ الأَسَلْ
رُدُّوا عَلينا شيخنا ثم بَجَلْ[1]

فهو يفتخر بقومه وقبيلته، ولم يفتخر بدينه وعقيدته أو صواب رأيه، مما يدلل على عودة بعض المفاهيم القديمة نتيجة توثب نعرة الانتصار للأشخاص والقبائل، ثم نموها تدريجيًا لتمهد إلى ظهور الصراعات القبلية فى وقت آخر أيام الأمويين.

وظل الصراع قائمًا بين الخليفة على بن أبى طالب (ت، ٤٠هـ/ ٦٦٠م) وبين والى الشام معاوية بن أبى سفيان (ت، ٦٠هـ/ ٦٧٩م) بحجة المطالبة بدم الخليفة المقتول عثمان بن عفان (رضى الله عنه) (ت، ٣٥هـ/ ٦٥٥م) حتى حصل الجد فى الحرب والقتال فى وقعة صِفين[2] وذلك فى سنة (٣٧هـ/ ٦٥٧م)[3] فقال كعب بن جعيل التغلبى يرتجز:

أصبحَتِ الأمةُ فى أمرٍ عَجَبْ والمُلكُ مجموعٌ غَدا لِمَن غَلَبْ
فقُلتُ قَولاً صادِقًا غَيرَ كَذبْ إنَّ غَدًا يُهلِكُ أعلام العَربْ
غَدًا نُلاقى ربَّنا فنَحتَسِبْ يا ربُّ لا تَشمِت بِنا ولا تُصِبْ
مِن خَلَعَ الأندادَ كُلًّا والصُّلُبْ غَدًا يكونونَ رمادًا قد كُثِبْ
بعدَ الجِمالِ والحِياءِ والحَسَبْ[4]

يشير الشاعر على حصول الفرقة، ونصيحته على الطرفين بالالتزام بسبيل الصدق والابتعاد عن مغريات الدنيا، لأن نهاية الحياة هو الموت، فلا ينفع الإنسان

(١) الطبري: تاريخ، ٤/ ٥١٨.

(٢) صفين: موقع قرب الرقة على شاطئ الفرات الغربي. كما في ياقوت: معجم البلدان، ٣/ ٤١٤ (صفين).

(٣) ابن خياط: تاريخ، ١/ ١٧٣؛ الطبري: تاريخ، ٥/ ١٧ وما بعدها.

(٤) المنقري، نصر بن مزاحم (ت، ٢١٢هـ/ ٨٢٧م): وقعة صفين، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (مكتبة الخانجي، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م)، ٢٢٥-٢٢٦.

بعد ذلك سوى عمل الخير والاحتساب لله، وقد بدت معانى الشاعر الأخلاقية ذات أثر دينى يلتزم بأفق التوجيه الإسلامى فى حين يصف شَبَثُ بن رِبعى[1] (ت، نحو ٨٠هـ/ ٦٩٩م) مجريات القتال فى هذه الوقعة فيقول:

وَقَفنا لَديهِم يومَ صِفّين بالقَنا ... لَدُن غدوةٌ حتى هَوَت لغرُوبِ
نُجالِدُهم طَورًا وطَورًا نصدُّهُمْ ... وقَد أرضت الأسيافُ كلَّ غَضُوبِ
وولّى ابنُ حَربٍ والرّماح تُنوشُه ... على كلِّ محبوكٍ السَّراة شَبُوبِ
بكلِّ أسيلٍ كالقراطِ، إذْ بَدَت ... لوائِحها بينَ الكُماةِ، لَعُوبِ
نُجالِد غسانَ وتَشقى بحَربِنا ... جُذامٌ ووتر العبدِ غيرُ طَلُوبِ
فَلَم أَر فُرسانًا أشدَّ حَفيظَةً ... إذا غشى الآفاقَ نفحُ جَنُوبِ
أَكَرّ وأحمَى بالغَطاريفِ والقَنا ... وكُلُّ حديد الشَّفْرَتِين قَضوبِ[2]

يصف هذا الشعر أصحاب معاوية فى هذه الوقعة وكيف كانوا يجالدونهم، ويشير إلى القبائل التى ساندتهم من أمثال غسان وجذام، ثم يصف أصحاب على وإقدامهم فى القتال مما يجعل من هذه الأبيات توثيقًا واقعيًا للحدث التاريخى. لأن ما يقال فى أثناء الاشتباك ينبثق انبثاقًا مباشرًا من ظروف الواقع، فهذا قيس بن سعد بن عبادة[3] (ت، ٦٠هـ/ ٦٧٩م) يرتجز حين اشتد سعير الحرب فيقول:

أنا ابنُ سعدٍ زانَهُ عُبادَهْ ... والخزرجيون رجالٌ سادَهْ
ليسَ فِرارى فى الوغى بِعادَهْ ... إنَّ الفِرارَ للفتى قِلادَهْ

---

(١) شَبَثُ بن رِبعي من بني العجفاء من بني رياح (ت، نحو ٨٠هـ/ ٦٩٩م). ترجمته: ابن دريد، أبو بكر بن الحسن الأزدي (ت، ٣٢١هـ/ ١٩٦٦م): الاشتقاق، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الجزء الأول (مكتبة المثنى، بغداد، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ٢٢٣؛ ابن حبان: الثقات، ٤/ ٣٧١.

(٢) المنقري: وقعة صفين، ٢٩٤-٢٩٥.

(٣) قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، صحابي ولي مصر (ت، ٦٠هـ/ ٦٧٩م). ترجمته: ابن عبدالبر: الاستيعاب، ٣/ ٢٢٤؛ ابن حجر، تهذيب، ٨/ ٣٥٣.

يـــا رب أنـــتَ لقّنـــى الـــشَّهادَهْ والقَـــتلُ خـــيرٌ مِـــن عِـــناقِ غَـــادَهْ
حَتـــى مَتـــى تُثنَـــى لى الوِســـادَهْ[1]

إنه يفخر بنسبه مما يشير إلى عودة الروح القبلية عند فرسان الطرفين، فقد كان يناجر بُسْرَ بن أَرطأة[2] (ت، ٨٦هـ/ ٧٠٥م) من أصحاب معاوية، فكان بسر يناجزه ويرتجز:

أنـــا ابـــن أرطـــاةٍ عظـــيم القَـــدرِ مُـــردَّدٌ فـــى غالِـــب بِـــن فَهـــرِ
لَـــيسَ الفِـــرارُ مـــن طِـــباع بُـــسْرِ أن يـــرجَع الـــيومَ بغـــيرِ وتْـــرِ
وَقَـــد قـــضيتُ فـــى عـــدوِّى نَـــذْرِى يـا ليتَ شِعرى ما بقَى من عُمْرِى[3]

إنه لا يختلف عن خصمه قيس بن سعد فى تعداد المزايا حينما يبدأ مفتخرًا بنسبه، بما يكشف عن كون هذا الرجز يَعرض واقعًا ويوثق الحالة النفسية للمقاتلين، فيديم الصلة بين الحدث التاريخى والشعور الذاتى وما يخفى وراءه من خلفية قبلية، وكأن الحرب أصبحت صراع فرسان، وليست صراع مبادئ وحقوق وعقائد.

كـان مـن نتـائج وقعة صفين خروج بعض أصحاب الخليفة على بن أبى طالب اعتراضًا على النتـائج التـى تمخض عنها قبول التحكيم، فسموا بالخوارج[4] والذين خاضعوا وقعة النهروان[5] ضد جيش الخلافة فى سنة (٣٧هـ/ ٦٥٧م)[6]،

---

(١) المنقري: وقعةص فين، ٤٢٨.

(٢) هو بُسر بن أرطاة بن عويمر بن عمران من لؤي بن غالب. ترجمته: ابن سعد، محمد بن سعد (ت، ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م): الطبقات الكبرى، الجزء السابع (دار صادر – دار بيروت، بيروت، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م)، ٤٠٩؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ١/ ٢١٣.

(٣) المنقري: وقعة صفين، ٤٢٩.

(٤) وهم الذين خالفوا عليًا وأدوا إلا خلعه وإكفاره بالتحكيم، وخرجوا عليه، فسموا الخوارج. ينظر: الأشعري، علي بن إسماعيل (ت، ٣٣٠هـ/ ٩٤١م): مقالات الإسلاميين، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (دار الحداثة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ٦٤.

(٥) النهروان: كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي كما في ياقوت: معجم البلدان، ٥/ ٣٢٥ (نهروان).

(٦) ابن خياط: تاريخ، ١/ ١٨٠؛ الطبري: تاريخ، ٥/ ٩٢.

فكان العيزار بن الأخنس الطائى[1] أحد الخوارج يقف بين الصفين ويقول:

ألا ليتنى فى يوم صفيّن لم أؤبْ ... وغودرت فى القتلى بصفينَ ثاويا
وقُطِّعت آرابًا وألقيت جُثَّةً ... وأصبحتُ مُيتًا لا أجُيب المُناديا
ولَم أرَ قَتلى سِنبس وَلَقَتلُهُم ... أشابَ غداةَ البينِ منى النَّواصيا
ثمانونَ من حيَّى جَديلَةَ قُتِّلوا ... على النَّهرِ كانوا يخضبونَ العَواليا
ينادونَ لا لا حُكمَ إلا لربِّنا ... حنانيكَ فاعفِر حَوبَنا والمساويا
هم فارقوا فى اللهِ من جار حُكمُهُ ... وكُلُّ عن الرَّحمَن أصبحَ راضيا
فلا وإلهُ الناسِ ما هاب مَعشرٌ ... على النهرِ فى اللهِ الحتوفَ القواضيا
شَهِدتُ لهم عند الإلهِ بفلجِهم ... إذا صالِحُ الأقوامِ خافوا المخازيا
وآلوا إلى التقوى ولم يتبعوا الهَوى ... فلا يبعِدنَّ الله من كانَ شاريا[2]

يبين هذا الشعر عدد الذين قتلوا من حيى جديلة، وهم ثمانون، ويكشف عن عقيدة الخوارج الذين يرون بأن لا حكم إلا لله، فضلاً عن إشارته إلى يوم النهر، وإلى الشراة[3] الذين شروا أنفسهم طالبين الموت فى سبيل الله[4] فكان شعرهم ينطق بما توليهم عليهم عقيدتهم.

---

(١) أحد شعراء الخوارج، وقيل: إن اسمه الأخنس بن العيزار. ينظر: ابن الأعثم، أحمد بن أعثم الكوفي (ت، نحو ٣١٤هـ/ ٩٢٦م): الفتوح، إشراف محمد عبدالمعيد خان، الجزء الرابع (مطبعة مجلس المعارف العثمانية، حيدر آباد الدين، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م)، ١٢٩.

(٢) شعر الخوارج، جمع وتحقيق: إحسان عباس (دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م)، ٣٢-٣٣.

(٣) اختلف في أول من شرى فقيل: عروة بن مرداس أخو بلال بن مرداس الخارجي، وقيل يزيد بن عاصم. ينظر: البغدادي، عبدالقاهر بن طاهر بن محمد التميمي (ت، ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م). الملل والنحل، تحقيق: البير نصري نادر (دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٦م)، ٥٨.

(٤) ينظر: شعر الخوارج، ١٠.

أدى الصراع الدامى بين الخليفة على بن أبى طالب رضى الله عنه وبين معاوية إلى استشهاده سنة (٤٠هـ/ ٦٦٠م) فقال أبو الأسود الدؤلى مخاطبًا معاوية:

ألا أبلِـــغ معاويـــةَ بـــن حَـــربٍ ... فـــلا قَـــرَّتْ عـــيونُ الـــشَّامتِينَا
أفـــى شـــهرِ الـــصيامِ فجعـــتمونَا ... بخـــيرِ الـــناسِ طُـــرًّا أجمعيـــنَا
قتلـــتمُ خـــيرَ مَـــنْ رَكِـــبَ المَطايـــا ... وخَيَّـــسها ومَـــن رَكِـــبَ الـــسَّفينَا
ومـــن لَـــبس الـــنِعالَ ومـــن حـــداها ... ومـــن قـــرأ المثانـــى والمئيـــنَا
إذا اســـتقبلت وجـــه أبـــى حُـــسينٍ ... رأيـــتَ الـــبدرَ راقَ الناظـــرينَا
لقَـــد عَلِمَـــت قُـــريشٌ حـــيثُ كَانَـــتْ ... بأنَّـــكَ خيرُهُـــم حَـــسَبًا ودِيـــنَا[1]

يعد هذا الرثاء تعبيرًا عن موقف يدعم موقفه ضد معاوية، لأن أبا الأسود من أصحاب على المخلصين الذين تحسسوا فضائله، وأدركوا مكانته الدينية والاجتماعية مما يكشف عن تلازم الشعر مع الحدث التاريخى، فقد كانت وفاة الخليفة على بن أبى طالب منعطفًا حرجًا فى تاريخ الدولة العربية الإسلامية، إذ بدأ بعدها اتجاه سياسى جديد وتراث شعرى له خصائص التى عادت بالقصيدة إلى صراعات القبائل ومتغيرات القوى.

(١) ديوانه، ٧١-٧٢.